

فنون الأدب العربي  
الفن القصصي

١

# المقامة

بقلم

الدكتور شوقي ضيف

الطبعة السابعة



دار المعارف







## مقدمة

فن المقامة من أهم فنون الأدب العربي ، وخاصة من حيث الغاية التي ارتبطت به ، وهي غاية التعليم وتلقين الناشئة صيغ التعبير ، وهي صيغ حُلِّيت بألوان البديع ، وزُيِّنت بزخارف السجع ، وعُنى أشدَّ العناية بتسميتها ومعادلاتها اللفظية ، وأبعادها ومقابلاتها الصوتية .

وبدیع الزمان هو الذي مهَّد الطريق وعَبَّده لظهور هذا الفن ، وخَلَّفه الحريري ، فتبيَّن المعالم والصوَى بأوضح مما تبيَّن سلفه ، إذ كان أوسع ثقافة ، وأحكم صياغة ، وأقوى تعبيراً ، فإذا هو يصل بالفن إلى القمة التي كانت تنتظره ، وإذا مقامته تصبح المعجزة الحارقة التي لا تُسبَق ولا تُلاحق على مر العصور .

وعكف عليها الطلاب والأدباء في جميع الأقاليم العربية يتدارسونها ويحفظونها ويُرَتِّلونها على نحو ما تُرَتَّلُ الأناشيد الدينية . ولم تَعْفُهم عن إعجابهم بها حواجز الصناعة التي أقامها الحريري من كنايات وأمثال وألغاز أحياناً ، بل ظلوا خاشعين ، مشدوهين .

وكثُرَ مَنْ قَلَّدوا الحريري واحتذوا على مثاله ، ولكنهم كانوا دائماً يقعون على السَّفْح من دونه ، إذ كانت أجنتهم من الضعف بحيث لم يستطيعوا أن يخلِّقوا في الأفق الذي خلِّق فيه ، وبذلك ظل اسمه يلمع ويتألق طوال تسعة قرون .

حتى إذا كان القرن الماضي ظهر ناصيف اليازجي بلبنان ، ونسج المقامة نسجاً فريداً ، غير أنه لم يستطع أن يصعد إلى مراتق الحريري وإبداعه ،

إذ لم تكن له ملكاته ولا مواهبه . وكأنما كُتِبَ في ألواح القدر أن يظل الحريريّ  
 يتيمّة الدهر وعبريّة الفسَد الذي لا يبارى ولا يجارى في هذا الفن .

وقد حاولت أن أصور ذلك وأفسره بادئنا من الخطوات الأولى لصنع  
 المقامة ، ومنتهياً بالخطوات الأخيرة . وفي أثناء هذه المحاولة رجعت إلى مكتبه  
 الباحثون المختلفون من عرب ومستشرقين عن المقامة وأصحابها ،  
 وبفضلهم جميعاً وضعت هذا الكُتَيْب . وأنا أقدمه إلى الشباب  
 مؤملاً أن يشوقهم إلى قراءة هذا الفن والإدمان على مراجعة صحفّه عند  
 أقطابه ، حتى يمتلكوا ناصية اللغة ، وحتى تتحول إليهم هذه الثروة اللفظية  
 بجواهرها وعقودها المنظومة ، درة بجانب درة ، ولفظة بليغة بجانب لفظة بليغة ،  
 فيكون لهم عتاد لغوي واسع ، ومحصل لفظي وافر ، بجانب الثقافة الحديثة  
 والمحتويات الأدبية الجديدة . وأعترف بأني لم أكتب إلا لحة خاطفة ، ونظرة  
 طائفة . والله وليُّ الهدى والتيسير .

شوقي ضيف

القاهرة في أول فبراير سنة ١٩٥٤ م

## معنى المقامة

١

### المعنى اللغوي

إذا رجعنا إلى الشعر الجاهليّ وجدنا كلمة مقامة تستعمل بمعنىين ، فتارة تُستعمل بمعنى مجلس القبيلة أو ناديها ، على نحو ما نرى عند زهير إذ يقول :

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوهها وأنديّةٌ يَسْتَأْبَهُا القولُ والفعلُ

وتارة تستعمل بمعنى الجماعة التي يضمها هذا المجلس أو النادي ، على نحو ما نرى عند لبيد إذ يقول :

ومقامة غلب<sup>(١)</sup> الرقاب كأنهم جين<sup>(٢)</sup> لدى باب الحَصِير<sup>(٢)</sup> قيام

فالكلمة تستعمل منذ العصر الجاهليّ بمعنى المجلس أو من يكونون فيه . وتقدم في العصر الإسلاميّ فنجد الكلمة تستعمل بمعنى المجلس يقوم فيه شخص بين يدي خليفة أو غيره ويتحدث واعظاً . وبذلك يدخل في معناها الحديث الذي يصاحبها . ثم نتقدم أكثر من ذلك فنجدها تستعمل بمعنى المحاضرة .

وعلى هذه الشاكلة تُعصَى الكلمة من معنى القيام وتصبح دالة على حديث الشخص في المجلس سواء أكان قائماً أم جالساً . وبهذا المعنى استعملها بديع الزمان في المقامة الوعظية ؛ إذ نرى أبا الفتح الإسكندريّ يخطب في الناس واعظاً واعظاً بديعاً ، وراعَ ذلك منه عيسى بن هشام فقال لبعض السامعين :

(١) غلب : جمع أغلب وهو الغليظ الرقة .

(٢) الحَصِير هنا : الملك .

« من هذا ؟ فقال : غريب قد طرأ لا أعرف شخصه ، فاصبر عليه إلى آخر مقامته » .

## ٢

## المعنى الاصطلاحي

وبديع الزمان هو أول من أعطى كلمة مقامة معناها الاصطلاحي بين الأدباء ، إذ عبر بها عن مقاماته المعروفة ، وهي جميعها تصور أحاديث تُلقَى في جماعات ، فكلمة مقامة عنده قريبة المعنى من كلمة حديث .

وهو عادة يصوغ هذا الحديث في شكل قصص قصيرة يتأنق في ألفاظها وأساليبها ، ويتخذ لقصصه جميعاً راوياً واحداً هو عيسى بن هشام ، كما يتخذ لها بطلاً وحداً هو أبو الفتح الإسكندري الذي يظهر في شكل أديب شحاذ ، لا يزال يروع الناس بمواقفه بينهم وما يجري على لسانه من فصاحة في أثناء مخاطباتهم .

وليس في القصة عقدة ولا حبكة ، وأكبر الظن أن بديع الزمان لم يُعنى بشيء من ذلك ، فلم يكن يريد أن يؤلف قصصاً ، إنما كان يريد أن يسوق أحاديث لتلاميذه تعلمهم أساليب اللغة العربية وتقفهم على ألفاظها المختارة .

فالمقامة أريد بها التعليم منذ أول الأمر ، ولعله من أجل ذلك سماها بديع الزمان مقامة ، ولم يسمها قصة ولا حكاية ، فهي ليست أكثر من حديث قصير ، وكل ما في الأمر أن بديع الزمان حاول أن يجعله مشوقاً فأجراه في شكل قصص .

وعُمي على كثير من الباحثين في عصرنا ، فظنوها ضرباً من القصص ، وقرنوا بينها وبين القصة الحديثة ، ووجدوا فيها نقصاً كثيراً . وهذا حمل

لعمل بديع الزمان على معنى لم يقصد إليه ، فكل الذى قصده أن يضع تحت أعين تلاميذه مجاميع من أساليب اللغة العربية المنمقة ، كى يقتدروا على صناعتها ، وحتى يتيح لهم أن يتفوقوا فى كتاباتهم الأدبية .

ووضَعَ ذلك فى صورة قصصية ، يكون فيها حوار محدود ، ويكون فيها ما يشوق ويجذب الناشئة للاطلاع على ما يؤلفه ويصوغه . واختار البطل أديباً شحاذاً ليتم له التشويق .

## ٣

## خصائص وصفات

ليست المقامة إذن قصة وإنما هى حديث أدبى بليغ ، وهى أدنى إلى الحيلة منها إلى القصة ، فليس فيها من القصة إلا ظاهراً فقط ، أما هى فى حقيقتها فحيلة يُطرفنا بها بديع الزمان وغيره لنطلع من جهة على حادثة معينة ، ومن جهة ثانية على أساليب أنيقة ممتازة . بل إن الحادثة التى تحدث للبطل لا أهمية لها ، إذ ليست هى الغاية ، وإنما الغاية التعليم والأسلوب الذى تُعرض به الحادثة . ومن هنا جاءت غلبة اللفظ على المعنى فى المقامة ، فالمعنى ليس شيئاً مذكوراً ، إنما هو خيط ضئيل تُنشرُّ عليه الغاية التعليمية .

ولعل ذلك ما جعل المقامة منذ ابتكرها بديع الزمان تنحو نحو بلاغة اللفظ وحب اللغة لذاتها فالجوهر فيها ليس أساساً . وإنما الأساس العرض الخارجى والحلية اللفظية . وكان لذلك وجهٌ من النفع فإن الأدباء انساقوا إلى الثروة اللفظية ، وأخذوا يبتكرون صوراً جديدة للتعبير ولكن فى حدود سطحية .

وكأنما أجموا عقوبهم وأطلقوا ألسنتهم ، فلم يتجهوا بالمقامة إلى وصف حوادث النفس وحركاتها ، ولا إلى الإفصاح للعقل كي يعبر عن العواطف ويحللها ، وإنما اتجهوا بها إلى ناحية لفظية صرفة ؛ إذ كان اللفظ فتنة القوم ، وكان السجع كلِّ ما لفتهم من جمال في اللغة وأساليبها ، وكانت ألوان البديع كل ما راعهم منها ومن أسرارها .

وتقدّم بديع الزمان في مقامته فأقام لهم معارض منسقة من ذلك ، وتبعه الحريري ، وتوسع من خلفهما بالمقامة فأجروها لا في تعليم الأساليب الأنيقة حسب ، بل أيضاً في مختلف الشئون الثقافية . فحمّلوها نَحْواً وفتحها وطباً ، ووضعوا فيها مناظرات خيالية ، كما وضعوا بها أحياناً جوانب من مجتمعاتهم ؛ ولكنهم لم يفكوا عنها أبداً قيود اللفظ وأسجاعه ، وما رسّفت فيه من أغلال البديع وأثقال اللغة وألفاظها العويصة ، بل كان ذلك مقياس المهارة والبراعة .

#### ٤

### في الآداب العالمية

عُرِفَت المقامة منذ وقت مبكر في الأوساط الفارسية ، فقد ألف القاضي حميد الدين أبو بكر بن عمر الباهلي ثلاثاً وعشرين مقامة على نسق مقامات الحريري وأتمها سنة ٥٥١ هـ . وكذلك عرفت في الأوساط اليهودية والمسيحية الشرقية ، فترجموها وصاغوا على مثالها باللغتين العبرية والسريانية .

أما في أوروبا فنحن نعرف أن عناصر كثيرة من القصص العربي تغلغت هناك منذ أواخر العصر الوسيط وأثناء العصر الحديث ، وخاصة ما كان

موضوعه الرحلات وعجائب المخلوقات . وفي كل يوم يُظهر الباحثون في عصرنا أن الروح العربي والشرقي على العموم وجد له هناك منافذَ وأبواباً كثيرة لا في الآثار الممتازة حسب ، بل في القصص الشعبي أيضاً .

ومنذ العصور الوسطى والاختلاط قائم بين الشرق والغرب ، بل إنه يتعمق التاريخ منذ عصوره الأولى ، ومن أجل ذلك يكون الزعم بأن المقامة العربية وجدت طريقها إلى الآداب الأوروبية ليس زعمًا فائلاً ، بحكم أنها جزء من الحركة الأدبية العربية ، وبحكم أنها جزء من هذه المادة الكبيرة التي نُقلت عن العرب إلى أوروبا ، فتفاعلت معها ، وأحدثت نهضتها .

وقد كان الاتصال بالآداب الشرقية عربية وفارسية من بدع الحركة الرومانسية كما هو معروف عن فيكتور هيجو في فرنسا وجوته في ألمانيا وبيرن وسكوت في إنجلترا . وإذا رجعنا إلى مقامات الحريري وجدنا المستشرقين يُعنون بها ، فترجم نماذج منها إلى اللاتينية ، وتُترجمُ إلى الألمانية والإنجليزية . وهذا معناه أنها وضعت تحت أعين القوم ليقروها ويتأثروا بها .

على أنه ينبغي أن نلاحظ أن تأثيرها كان محدوداً ، وخاصة إذا وازنا بينها وبين ألف ليلة وليلة مثلاً ، لأن الأخيرة ذات موضوع قصصي واضح ، ولذلك أقبل عليها الأوروبيون وتأثروا بها تأثراً واسعاً ، وخاصة من نواحيها الخرافية الخيالية . أما المقامات فن الصعب أن نتبين أثرها ؛ لأن القصة ليست عمادها ، إنما عمادها الأسلوب وما يحمل من زخارف السجع والبديع . ومع ذلك يمكن أن نرى أثرها في بعض القصص الإسبانية الذي يصف لنا حياة المشردين والشحاذين . ولعل من الطريف أن لهذا القصص عندهم بطلاً يسمى بيكارون (Picaroon) وهو يشبه من بعض الوجوه أبا الفتح الإسكندري عند بديع الزمان ، وأبا زيد السروجي عند الحريري .

وليس معنى ذلك أن المقامات أثرت تأثيراً واسعاً في الآداب الأوربية ،  
فقد كان تأثيرها ، ولا يزال ، ضعيفاً ، لأنها لا تقوم على سند حقيقى  
من القصص ، فلم تنعمق آداب القوم ولم تنفذ إلى أعمالهم كما نفذت ألف ليلة  
وليلة .

## نشأة المقامة

### عند بديع الزمان

١

#### بديع الزمان

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى الملقب بلقب بديع الزمان ، وُلِدَ في هَمَّذَانَ ، وهي مدينة جبلية في إيران سنة ٣٥٨ للهجرة . وفي رسائله المطبوعة دلالات مختلفة على أنه من أسرة عربية كريمة استوطنت هناك . ونراه يقول في أول رسالة له متلطفاً إلى مَنْ راسله : « إني عبد الشيخ ، واسمى أحمد ، وهَمَّذَانَ المولد ، وتَغَلَّبَ المورد ، ومُضَمَّرَ المَحْتَدِ » . فهو ليس فارسياً كما قد يُظَنُّ ، وإنما هو عربيٌّ مُضَمَّرٌ تَغَلَّبَنِي .

وأخذه أبوه بالتعليم والتثقيف ، فاختلف إلى دروس العلماء والأدباء في بلدته ، وتلقَّنَ على أيديهم ما شحَّدَ به عقله من دروس دينية ، وأخرى لغوية وأدبية . وأهمُّ أساتذته الذين خرَّجوه أبو الحسن أحمد بن فارس ، صاحب كتاب المُجْمَل ، وبينهما مراسلات ، ونراه يقول له في إحدى رسائله :

لَا تَلَسُّمْنِي عَلَى رِكَائِكَ عَقْلِي أَنْ تَيْقِضَنَّتْ أُنِي هَمَّذَانِي

وما زال يختلف إلى حلقات هذا الأستاذ المشهور وغيره ، حتى أتمَّ دروسه ، وأكمل تحصيله من اللغة والشعر والنثر .

ولا يصل إلى السنة الثانية والعشرين من عمره حتى يفكر في الرحلة عن بلدته ، وفي وصفه لها بقوله :

هَمَّذَانُ لِي بَلَدٌ أَقُولُ بِفَضْلِهِ      لَكِنَّهُ مِنْ أَقْبَحِ الْبُلْدَانِ  
صَبِيَانُهُ فِي الْقُبْحِ مِثْلُ شَيْوَحِهِ      وَشَيْوَحُهُ فِي الْعَقْلِ كَالصَّبِيَانِ

ما يدل على أنه لم يكن معجباً بها . فولّى وجهه عنها ، وقصد إلى حضرة الصاحب بن عباد في الرّيّ ، وكان اسمه طَبَّقَ الآفاق ، لا لأنه وزير البويهيين الأوّل حسب ، بل لأنه أكرم قُصَّاده من الشعراء والأدباء وأجزل لهم العطاء .

ونزل بديعُ الزمان بساحته ، ومدحه ببعض شعره ، وأعجب به الصاحب لفصاحته ، وقرّبته منه ، وأحضره مجالسه ، ورأى فيه مخايل ذكاء شديد ، إذ كان يترجم ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية بالأبيات العربية ، فيجمع بين الإبداع والإسراع . ونراه يتركه إلى جُرجان حيث ظلّ حَقِبة في رعاية أبي سعيد محمد بن منصور . ويظهر أن بعض الناس هناك أوغروا صدره عليه ، فيسمّ خراسان ، واتجه إلى نيسابور .

وفي طريقه إليها خرج عليه لصوص ، فسلبوه كل ما معه ، وصوّر نهبهم له في بعض رسائله ، إذ يقول من رسالة : « كتابي وأنا أحمد الله إلى الشيخ ، وأذمّ الدّهر ، فما ترك لي فضة إلا فضّتها<sup>(١)</sup> ، ولا ذهباً إلا ذهب به ، ولا عقاراً إلا عقّره<sup>(٢)</sup> ، ولا ضيعة إلا أضاعها ، ولا مالا إلا مال إليه ، ولا حالاً إلا حال عليه ، ولا فرساً إلا افترسه ، ولا سبداً<sup>(٣)</sup> إلا استبدّ به ، ولا لبداً<sup>(٤)</sup> إلا لبّد فيه ، ولا بزّة<sup>(٥)</sup> إلا بزّتها ، ولا عارية إلا ارتجعها ، ولا وديعة إلا انتزعها ، ولا خليعة إلا خلعها . وأنا داخل نيسابور ، ولا حليّة إلا الجلدة ، ولا برودة إلا القشرة » .

(١) فضها : أخذها وبددها . (٢) عقّر هنا : استولى على . (٣) السبد : الغرب .

(٤) اللبد : الصوف وفي المثل : ماله سبد ولا لبد ، أي لا قليل ولا كثير .

(٥) البرزة : الثياب .

ونزل نيسابور ويقول الثعالبي: إنه ألقى عصاه بها سنة ٣٨٢ للهجرة ،  
وفيهما ناظر أبا بكر الخوارزمي كبير أدباء العصر ومعلميه ، وانتصر عليه في  
مناظرته ، فطارت شهرته . وألف حينئذ مقامته وألقاها على التلاميذ ، فأعجبوا  
بها إعجاباً شديداً .

ويظهر أنه اتصل برؤساء هذه البلدة من بني ميكال ، وأنهم تابعوا  
عليه كثيراً من برّهم وفضلهم ، وما زال مرموقاً بأعينهم حتى نفر منهم .  
وفي رسائله رسالتان توضحان هذه النفرة . وهكذا لم يمكث بنيسابور أكثر  
من عام واحد ، فقد فارقها سنة ٣٨٣ ومضى على غلوائه في الاغتراب  
يرحل من بلد إلى بلد في خراسان ، حتى إذا نشبت الحرب بين السامانيين  
أصحاب السلطان بها والغزنويين رأيناه يتركها إلى سجستان ، وهي ولاية كانت  
بأقصى الشرق من إيران .

وخرج عليه في طريقه لصوص من الأتراك سلبوه ما معه ، وشكا منهم في  
بعض رسائله ، واستمر حتى نزل عند أمير سجستان خلف بن أحمد  
( ٣٤٤ - ٣٩٩ هـ ) وهو - كما يبدو من وصف بديع الزمان له في رسائله -  
شخصية ممتازة ، إذ كان أديباً ، وكان مثقفاً . وقد ألف فيه ست مقامات  
أضافها إلى مقاماته ملحّمة فيها ونوّه بفضله وكرمه ، إلا أنه لم يلبث أن نفر  
منه . وربما شعر عنده بشيء من التهاون لا يرضاه ، فاستأذنه في الذهاب إلى  
هراة بأفغانستان .

وكانت هراة تابعة للدولة الغزنوية التي ظهرت حينئذ ، وربما كان بديع  
الزمان يريد أن يتصل بالسلطان محمود الغزنوي صاحب الفتوح الكبيرة في  
الهند وفي إيران ، وأن يصبح من حاشيته أو من كتّابه . ويقول الثعالبي :  
إنه قدم عليه ، وبيروى له قصيدة في مديحه يقول فيها :

أفريدونُ في التناجِ . أم الإسكندرُ الثَّاني  
 أم الرجعةُ قد عادتُ إلينا بسُلَيْمانِ

غير أنه لم يلزم حضرته ، بل عاد إلى هراة على كثرة شكواه منها في رسائله . وربما كان السبب في أنه لزمها ، ولم يفارقها ، أنه أصهر فيها إلى رجل يسمى الخُشْنامى . وأنجب أولاداً واقتنى ضياعاً . وبين رسائله رسائل مختلفة كتب بها إلى والده يذكر له فيها أن له بهراة عقاراً ومزارع ، ويطلب منه أن يرحل إليه هو وإخوته وعمه .

وكل ذلك يدل على أنه عاش في أواخر حياته عيشة ثرية ، بل عيشة كريمة وقد أصبح كعبة القصد ، يقصدون إليه ليشفع لهم عند الأمراء ، يقول : « وهؤلاء الصدور يرون أن الشمس من قبلي تدور » . على أن الدائرة لم تلبث أن دارت عليه ، فلبى نداء ربه وهو لا يزال في الأربعين من عمره ، إذ توفي سنة ٣٩٨ هـ .

• • •

٢

### تأليف بديع الزمان لمقامته

ألف بديع الزمان مقامته في أثناء نزوله بنيسابور ، ويقال إنه كان يختم بها دروسه على الطلاب ، ولا نعرف شيئاً عما كان يلقيه عليهم من دروس ومحاضرات ، وأكبر الظن أنه كان يحاضرهم في مسائل لغوية ونصوص أدبية . ونظن ظناً أنه كان يعرض عليهم أحاديث ابن دُرَيْد الأربعين التي اتجه بها إلى غاية تعليم الناشئة أساليب العرب ولغتهم .

ولأنما نربط بين دروسه وبين أحاديث ابن دريد، لأنها هي التي ألهمته مقامته ، يقول الحُصْرِيُّ: إنه « لما رأى أبا بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدي أغرب بأربعين حديثاً ، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره ، وانتخبها من معادن فكره ، وأبدأها للأبصار والبصائر ، وأهداها إلى الأفكار والضمائر ، في معارض عَجَمِيَّة ، وألفاظ حُوشِيَّة . . . عارضه بأربعمئة مقامة في الكُدِيَّة ، تدوب ظرفاً ، وتقطر حسناً » .

وقد رأينا في غير هذا الموضوع أن كلمة مقامة معناها حديث ، وفي هذا ما يربط أدق الربط بين العاملين ، ويستطيع القارئ أن يرى ذلك في وضوح إذا رجع إلى كتاب الأمالي لأبي علي القالي ، وهو الكتاب الذي يحتفظ بأحاديث ابن دريد الأربعين -

ولا تدور هذه الأحاديث على الكُدِيَّة ، كما هو الشأن عند بديع الزمان ، ومع ذلك فالصلة بين العاملين واضحة . وذلك أن أحاديث ابن دريد تصاغ في شكل رواية وسند يتقدمها ، ثم هي غالباً مسجوعة ، وتمتلئ باللفظ الغريب . فهي أحاديث ألفت لغرض تعليم الناشئة اللغة ، بالضبط كما حاول بديع الزمان في أحاديثه ، وإن كانت خفيفة رشيقة .

ويصرح الحُصْرِيُّ بأن بديع الزمان أنشأ أربعمئة مقامة ، ومن قبله صرَّح بذلك الثعالبي في اليتيمة ، بل صرَّح به بديع الزمان في بعض رسائله . وربما كان ذلك غلطاً من ناسخ الرسائل ، فجرد متارضة بديع الزمان لابن دريد في أحاديثه الأربعين يقتضى أن تكون أحاديثه أو مقاماته أربعين أيضاً .

ويظهر أنه صنع في نيسابور أربعين مقامة فقط ، ثم رأى أن يزيد عليها

مقامات أخرى بعد مبارحته لها ، فزاد ستاً في مديح خلف بن أحمد في أثناء نزوله عنده ، كما زاد خمسيناً أخرى . وبذلك أصبحت المقامات نيفاً وخمسين .

على كل حال أنشأ بديع الزمان مقامته معارضة لأحاديث ابن دريد ، وإن من يقرأ الأملى ويتعقب بديع الزمان في عمله يرى الصلة واضحة تمام الوضوح بين الصنيعين . وإن المقامة الأسدية عنده لتمتد صيغة نهائية لصفة الأسد في ذيل الأملى ، وكذلك الشأن في المقامة الحمدانية وما جاء بها من صفة الفرس فإنها تكميل وتتميم لما جاء في الأملى من وصف الفرس .

وكثير من الأدعية والمواعظ في المقامات يتصل اتصالاً مباشراً بما في الأملى . ونفس الحكم والأمثال والوصايا كل ذلك نجد صورته واضحة عند بديع الزمان ، وبين مقامته مقامة تسمى الوصية ، وأخرى تسمى الوعظية . وليس ذلك حسب ، فقد تكون الفكرة التي أدار حولها مقامته ونقصه الكدوية أو الشحاذة استمدتها مباشرة من « خطبة الأعرابي السائل في المسجد الحرام » التي رواها صاحب الأملى عن ابن دريد . ومعنى ذلك أن الأدلة كثيرة على أن بديع الزمان تأثر ابن دريد في مقامته ، وأنه عارضه بها معارضة . على أنه ليس وحده الذي ألهم البديع مقامته ، فهناك عمل آخر للجاحظ أثر فيه أثراً بليغاً ؛ إذ تحدث في بعض كتبه عن أهل الكدوية حديثاً طويلاً وقصصاً نوادرهم . وقد احتفظ البيهقي في كتابه المحاسن والمساورى ص ٦٢٢ بفصل طريف من هذا العمل .

ونحن لا نطلع على هذا الفصل حتى نقطع بأن البديع اطلع على هذا العمل للجاحظ ، وأنه هو الذي أوحى إليه أن يُدير أغلب مقاماته على الكدوية . والفصل يبدأ بمحاوررة بين شيخ من أهل الكدوية وشاب منهم حديث العهد بالصناعة ، وقد سأله عن حاله ، فسب الكدوية وصناعتها ، فغضب الشيخ وثار

لصناعته ، وأخذ يتحدث عن شرفها وأن صاحبها في نعيم لا ينفد « فهو على بريد الدنيا ومساحة الأرض ، وخليفة ذى القرنين الذى بلغ المشرق والمغرب حينما حلّ ، لا يخاف البؤس ، يسير حيث شاء يأخذ أطيب كل بلدة » .  
 ونراه يذكر له إمام صاحب الكدية بكل بلدة في موسم حصادها يأكل من طبياتها « فهو رخيُّ الحال ، حسن البال ، لا يغمُّ لأهل ولا مال ، ولا دار ، ولا عقار » . ثم يقص على الشاب أنه دخل بعض بلدان الجبل ووقف في مسجدها الأعظم وعليه فوطة قد ائتزر بها ، وتعمَّم بحبَل من ليف ويده عكاز ، فنادى في الناس ، فاجتمعوا عليه فقال :

« يا قوم ! رجلٌ من أهل الشام . ثم من بلد يقال لها المصيصَة (١) من أبناء الغزاة والمرابطين في سبيل الله من أبناء الرِّكّاضة وحرسة الإسلام غزوت مع والدى أربع عشرة غزوة ، سبعاً في البحر ، وسبعاً في البر ، وغزوت مع الأرمنى . قولوا : رحم الله أبا الحسن ، ومع عمر بن عبيد الله . قولوا : رحم الله أبا حفص ، وغزوت مع البطال بن الحسين ، والرزداق بن مُدرك ، وحمدان ابن أبي قطيفة . وآخر ما غزوت مع يازمان الخادم ، ودخلت قسطنطينية ، وصليت في مسجد مسلمة بن عبد الملك ؛ مَنْ سمع باسمي فقد سمع ، ومَنْ لم يسمع فأنا أعرفه نفسى ، أنا ابن الغزيريل بن الركان المصيصى المعروف المشهور ، في جميع الثغور ، والضارب بالسيف والطاعن بالرمح ، سدّ من أسداد الإسلام . نازل الملك على باب طرسوس ، فقتل الذرارى ، وسبى النساء ، وأخذ لنا ابنان ، وحملوا إلى بلاد الروم . فخرجت هارباً على وجهى ، ومعى كُتُبٌ من التجار ، ففُطع على ، وقد استجرت بالله ثم بكم ، فإن رأيتم أن تردوا ركناً من أركان الإسلام إلى وطنه وبلده ؟ .

(١) من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم .

فوالله ما أتممت الكلام حتى انهالت على الدراهم من كل جانب ، وانصرفت ، ومعى أكثر من مائة درهم . فوثب إليه الشاب وقبّل رأسه ، وقال : أنت والله معلم الخير ، فجزاك الله عن إخوانك خيراً » .

ولا يتم هذا الفصل الطريف عند ذلك ، بل يعرض فى إسهاب لحيل المكّدين فى استخلاص الأموال والطعام من الناس ، ويروى بعض نوادرهم . وكل من يقرأ هذا الفصل ويقرأ مقامات البديع لا يستطيع أن يجحد أثره فيه .

ومعنى ذلك أننا نظن ظناً أن البديع قد استوحى فى عمله ما كتبه الجاحظ وقصّه عن أهل الكدّية ، كما استوحى فى عمله أيضاً ما كتبه ابن دريد من أحاديثه المعروفة فى كتاب الأمانى . فهو قد اطلع على العاملين . ومن غير شك يعلو فى التأثير فيه العملُ الأول على العمل الثانى ، فابن دريد وجّهه ليكتب أحاديث تعليمية أى أنه أثر فيه من جهة الشكل ، أما الجاحظ فأثر فيه من جهة الموضوع ، إذ جعله يدير أحاديثه أو مقاماته على الكدّية .

ولا بد أن نضيف إلى عمل الجاحظ عملاً آخر لا يقل أهمية عن عمله ، بل قد يتقدمه ، وهو بروز هذه الطائفة من أصحاب الكدّية فى عصر البديع ، وكانوا يعرفون حينئذ بالساسانيين نسبة إلى ساسان ، وهو شخص من بيت ملكى قديم فى فارس يقال إن أباه حرّمه الملك ، ويقال إنه كان ملكاً ، واغتصب منه الملك داراً ، فهام على وجهه محرقاً للكدّية . وهى أسطورة .

واشتهر من هذه الطائفة فى عصر البديع شاعران عقد لهما الثعالبى فى يتيّمته فصلين طويلين ، وهما : الأحنف العكبرى وأبو دُلف الخزرجى . أما الأحنف فيقول عنه : « شاعر المُكّدين وظريرفهم » ويسوق له قصيدة طويلة صورّ فيها صناعة الكدّية ، وتحدّث عن مصطلحاتها اللفظية وحيل أصحابها حديثاً مفصلاً . وأما أبو دُلف فيقول فيه : « شاعر كثير الملح

والطُّرْف ، مشحوذ المدينة ، في الكُبدية ، خَسَقَ التسعين في الإطراب ،  
والاغتراب ، وركوب الأسفار والصعاب ، وضربَ صفحة الحراب بالجراب ،  
في خدمة العلوم والآداب » ويروى له قصيدة عارض بها قصيدة الأحنف في  
حرفة الكبدية ومصطلحاتها .

وصلة البديع في مقاماته بهذين الشاعرين وتأثره بهما يقوم عليهما أدلة  
كثيرة ، فهو في المقامة الأولى يُجْرَى على لسان أبي الفتح بطل مقاماته هذين  
البيتين :

ويَحْكَمَ هذا الزمان زورُ فلا يغرنك الغرورُ  
لا تلتزمُ حالة ولكنْ دُرُّ باليسالي كما تدورُ

وهما من شعر أبي دلف الذي رواه الثعالبي في تيمته . وليس هذا كل  
ما نجده من صلة أو تأثر فإن من يقرأ المقامة الرُّصافية للبديع يشعر أنه نثر  
فيها قصيدتي الأحنف وأبي دلف اللتين صوراً فيهما حيل المكدين . وقد  
سمى إحدى مقاماته باسم المقامة الساسانية نسبة إلى هذه الطائفة ، وهي تجرى  
على هذا النمط :

« حدثنا عيسى بن هشام قال : أحلّنتني دمشقَ بعضُ أسفاري ، فبينما  
أنا يوماً على باب داري ، إذ طلع عليّ من بني ساسان كَتِيبَةٌ قد لفوا  
رءوسهم ، وطمَلُوا بالمغفرة<sup>(١)</sup> لبُوسهم ، وتأبَّط كل واحد منهم حجراً  
يدق به صدره ، وفيهم زعيم لهم يقول وهم يراسلونه ، ويدعو ويجاوبونه ، فلما  
رآني قال :

أريد منك رَغيفاً يعلو خِيواناً<sup>(٢)</sup> نظيفاً

(١) المغرة : طين أحمر يصيغ به .

(٢) الخوان بضم الخاء وكسرهما : المائدة قبل وضع الطعام .

أريد بَقْلًا قَطِيفًا <sup>(٢)</sup>	أريد مِلْحًا جَرِيشًا <sup>(١)</sup>
أريد خَلًا ثَقِيفًا <sup>(٤)</sup>	أريد لَحْمًا غَرِيضًا <sup>(٣)</sup>
أريد سَخْلًا <sup>(٥)</sup> خروفا	أريد جَدِيًّا رَضِيعًا
يَغْشَى إِنْاءَ طَرِيفًا	أريد مَاءً بِشَلْجٍ
أقوم عنه نَزِيفًا <sup>(٦)</sup>	أريد دَنًّا مُدَامًا
على القلوب خَفِيفًا	وساقِيًّا مُسْتَهْشًّا
وَجُبَّةً وَنَصِيفًا <sup>(٧)</sup>	أريد مِنْكَ قَمِيصًا
أريد سَطْلًا وَلِيفًا	أريد مُشْطًا وَمُوسَى
وأنتَ مُضِيفًا	يا حَبْدًا أَنَا ضِيفًا
ولم أُرِدْ أَن أُحِيفًا <sup>(٨)</sup>	رَضِيتُ مِنْكَ بِهَذَا

قال عيسى بن هشام : فنسلته درهما ، وقلت له : قد آذنت بالدعوة ،  
وسنعدت ونستعدت ، ونجتهد ونجد ، ولك علينا الوعد من بعد . وهذا الدرهم  
تذكرة معك ، فخذ المنقود ، وانتظر الموعد ، فأخذه وصار إلى رجل آخر  
ظننت أنه يلقاه بمثل ما لقيني ، فقال :

يا فاضلاً قد تبدى كأنه الغصنُ قدأ

(١) الجريش من الملح : الخشن .

(٢) البقل : ما ينبت أرواقاً بلا ساق ، والقطيف : المقطوف .

(٣) الغريض : الطرى ، وهو الطازج .

(٤) الثقيف : الحامض .

(٥) السخل : ولد الضأن .

(٦) النزيف : السكران .

(٧) النصيف : الهامة .

(٨) أحيف : أظلم .

قد اشتهى اللحمَ ضيرسى      فاجلدهُ بالخُبزِ جلدًا  
وامننُ علىَ بشىءٍ      واجعله له للوقت نقدًا  
أطلق من اليد خصرًا<sup>(١)</sup>      واحمل من الكيس عقدا  
واضممُ يديك لأجلبي      إلى جناحك<sup>(٢)</sup> عمدا

قال عيسى بن هشام : فلما فتق سمى منه هذا الكلام علمت أن وراءه فضلاً ، فتمعنه ، حتى صار إلى أمّ مثواه<sup>(٣)</sup> ، ووقفت منه بحيث لا يرانى وأراه ، وأماط السادة لشخصهم ، فإذا زعيمهم أبو الفتح الإسكندرى ، فنظرت إليه وقلت : ما هذه الحيلة ويحك ؟ ! فأنشأ يقول :

هذا الزمان مشوم<sup>(٤)</sup>      كما تراه غشومُ  
الحمقُ فيه مـليحٌ      والعقلُ عيبٌ ولُومُ  
والمال طيفٌ ولكن      حول اللئام يحومُ

وواضح أن المقامة تعبيرٌ عن هذه الطائفة الساسانية . ووصفٌ من بعض الوجوه لحييلهم ، وفيها نرى أبا الفتح الإسكندرى بطل المقامات ساساني كبير ، وهو كذلك في أكثر المقامات أديب شحاذ عظيم . ولا يختلف باحث في أن هذا البطل من خيال بديع الزمان ، فلم يسبقه باسمه أحد ، وإنما هو الذى وضعه لمقاماته . فهو يجرى في أكثرها ، وإنما نقول أكثرها ، لأن هناك مقامات لم يرد ذكره فيها مثل المقامة الغيلانية والبغدادية . وهناك مقامات لا يظهر فيها أبو الفتح إلا في آخرها كالمقامة الإبلية . ولكن الكثرة يتضح فيها منذ أول الأمر .

(١) أطلق من اليد خصرًا : كناية عن إجابة الغير .

(٢) اضمم يدك إلى جناحك : كناية عن إدناء اليد إلى موضع النقد .

(٣) أم مثواه : صاحبة منزله .

(٤) مشوم : مشوم ، وخفف .

وكما أن شخصية أبي الفتح بطل المقامات خيالية فكذلك شخصية الراوى عيسى بن هشام ، فهما جميعاً من صنع البديع واقتراحه . وهو يبدأ كل مقامة بهذه الصيغة الثابتة : « حدثني عيسى بن هشام ، قال » وهى تدل دلالة قاطعة على أنه حين حاول تأليف هذه المقامات كان فى ذهنه أن يقلد طريقة الرواة بل بعبارة أدق كان فى ذهنه أن يقلد طريقة ابن دريد فى أحاديثه .

فابن دريد يبدأ أحاديثه دائماً بالسند ، وفى نص الحصرى السابق ما يشير إلى أن أحاديث ابن دريد من مخترعه ، ومعنى ذلك أن سندها أيضاً من مقترحه ، وكان ابن الكلبي وغيره ممن يسند إليهم أحاديثه ليسوا أكثر من رمز إلى سنة الرواة . أما فى حقيقة الأمر فلا رواية ولا راو ، وإنما هى أحاديث من عمل ابن دريد ومن نسج خياله .

وقلده فى ذلك البديع ، ولكنه لم يُجر أحاديثه أو مقاماته فى سند مكذوب على شاكلة الأسانيد اللغوية والتاريخية المكذوبة ، إنما أجراها فى سنده الخاص الذى أنشأه لنفسه لإنشاء ، واخترعه اختراعاً .

## ٣

## الموضوع

موضوع المقامة عند بديع الزمان ليس واحداً ، حقاً أكثر المقامات موضوعها الكدبية والاستجداء ؛ إذ يظهر أبو الفتح الإسكندرى فى شكل أديب شحاذ يخلب الجماهير ببيانه العذب ، ويحتال بهذا البيان على استخراج الدراهم من جيوبهم .

وهو يتراعى بهذه الصورة فى بلدان مختلفة ، ولعل هذا ما دفع بديع الزمان إلى أن يسمى المقامات بأسماء البلدان ، ومعظمها بلدان فارسية . وقد

يترك ذلك ويسمى المقامة باسم الحيوان الذي يصفه كالأسدية ، أو باسم الأكلة التي يُلم بها أبو الفتح كالمضيرية نسبة إلى أكلة المضيرة . وأحياناً يسميها باسم الموضوع الذي يعرض له كالوعظية ؛ لأنها تدور حول وعظ ، والقريضية لأنها تدور حول القريض والشعر ، والإبليسية لأنها تتصل بإبليس ، والملوكية لأنها تتصل بملك هو خلف بن أحمد ، وهكذا .

ومعنى ذلك أن بديع الزمان لم يصطلح في تسمية مقاماته على سنة واحدة . ولعل هذا نفسه يشير إلى أن موضوعاتها تختلف ، فهي كما قلنا لا تجرى كلها في الكدوية ، بل تذهب مذاهب شتى ، تتحد فيها الغاية ، وهي رصف العبارات الأدبية المنمقة .

وكان الشكل القصصي ليس هدفها ، فهي إنما تتخذه خيطاً ينسج حوله هذا الوشي من الأساليب المسجوعة . ومن هنا لم يعين البديع لنفسه فيها خطة مرسومة ، ومن ثمَّ اختلفت الموضوعات .

ولعل أول ما يسترعى النظر من ذلك مقاماته الست التي كتبها ليُشيد فيها بخلف بن أحمد صاحب سجستان فإنه لم يجعل موضوعها الكدية ، وإنما نحا بها نحو مدحه . ففي المقامة الملوكية مثلاً نجد عيسى بن هشام يلتقي بأبي الفتح ، فيسأله عن أكرم الملوك ، فيقول عيسى :

« فذكرت ملوك الشام ومن بها من الكرام ، وملوك العراق ومن بها من الأشراف ، وأمراء الأطراف ، وسقت الذكر ، إلى ملوك مصر ، فرويت ما رأيت ، وحدثته بعوارف ملوك اليمن ولطائف ملوك الطائف ، وختمت مدح الجحمة ، بذكر سيف الدولة ، فأنشأ يقول :

يا ساريًا بنجوم الليل يمدحها	ولو رأى الشمس لم يعرف لها خطراً
وواصفًا للسواقى هبك لم تزُرْ الـ	بحر المحيط ألم تعرف له خجراً ؟
من أبصر الدر لم يعدل به حجراً	ومن رأى خلفاً لم يذكر البشراً

المقامة

زُرُهُ تَزْرُ مُلْكًا يَعطى بأربعة (١)  
 أيامه غُرًّا ووجهه قَمْرًا  
 لم يحوها أحدٌ وانظر إليه تَرَى  
 وعزومه قَدْرًا وسيبته (٢) مَطْرًا  
 ما زلتُ أمدحُ أقوامًا أظنهم  
 صَمَوَ الزمانَ فكانوا عنده كَدْرًا

قال عيسى بن هشام : فقلت : من هذا الملك الرحيم الكريم ؟ فقال :  
 كيف يكون ، ما لم تَبْلُغْهُ الظنون ؟ وكيف أقول ، ما لم تقبله العقول ؟ ومتى  
 كان ملك يأنف (٣) الأكارم ، إن بعثت بالدراهم ، والذهب ، أيسرُ  
 ما يهَبُ ، والألفُ ، لا يعمه إلا الخلف (٤) ، وهذا جبل الكُحْلُ قد  
 أضرَّ به المِيلُ (٥) ، فكيف لا يؤثر ذلك العطاء الجزيل ؟ وهل (٦) يجوز أن  
 يكون ملك يرجع من البَدَلِ إلى سَرَفِه ، ومن الخلق إلى سَرَفِه ، ومن الدين  
 إلى كَلْفِه ، ومن الملك إلى كَتْفِه ، ومن الأصل إلى سَلْفِه ، ومن النَّسْلِ إلى  
 خَلْفِه ؟!

فليت شعري من هذِي مآثرُهُ ماذا الذى ببلوغ النّجمِ يَنْتَظِرُهُ.

وهذا مدح ظاهر ، فالمقامة لم تتعرض لكُدِيّة ، وإنما تعرضت لهذا المدح  
 الذى يدل دلالة بَيِّنَةٌ على أن النثر أخذ يزاحم الشعر ، فالهمداني فيها يصوغ  
 المدح نثرًا . وكنا نعرف حتى عصر البديع أن الشعر لسانُ المديح ، وأن  
 المادحين لا يتكلمون بغيره . واليوم انقلبت الآية ، فقد أصبح المدح يقال  
 نثرًا كما يقال شعرًا . وبذلك انعدمت الحواجز التى كانت تفصل بين عالمي

(١) يريد الأربعة التى سيذكرها فى البيت التالى .

(٢) السيب : العطاء .

(٣) يأنفه : يضرب أنفه ، يريد أن ممدوحه يضرب الكرماء على أنوفهم حين يعثون بدراهمهم أى

أنه يفوقهم كرمًا .

(٤) الخلف : الفأس ، يريد أنه يتلف الألف ، أى أنه كرم جيد .

(٥) الميل : المرود يكتحل به ، يقول إن الميل على قلة ما يأخذ يضر بالجليل فكيف بكرم

ممدوحه وما يؤخذ منه .

(٦) الاستفهام إنكارى أى أن كل ملك بهذه الصفات لا يستطيع أن يبلغ مبلغه .

النثر والشعر ، فالنثر يطرق موضوعات الشعر ، والشعر يطرق موضوعات النثر على نحو ما هو معروف في الشعر التعليمي .

وبجانب هذا الموضوع ، موضوع المديح ، نجد موضوعاً آخر ، بل موضوعات أخرى ، وهي ليست من موضوعات الشعر كالموضوع السابق ، وإنما هي من موضوعات النثر ، غير أنها ليست كندية فهي لا تجرى مع الموضوع العام . فمن ذلك أننا نجد مقامات تتخذ النقد الأدبي موضوعاً لها ، مثل المقامة العراقية والشعرية والقريضية . فهذه المقامات الثلاث يعرض فيها بديع الزمان لأحكام أدبية تتصل بالشعر والشعراء ، وبجانبها مقامة تسمى الجاحظية ، وفيها نرى البديع يقول على لسان أبي الفتح وقد حضر مأدبة ، وعرض الجاحظون لفصاحة الجاحظ ولسنه :

« يا قوم : لكل عمل رجال ، ولكل مقام مقال ، ولكل دار سكان ، ولكل زمان جاحظ ، ولو انتقدتم لبطل ما اعتقدتم . . . إن الجاحظ في أحد شقّي البلاغة يقطف<sup>(١)</sup> ، وفي الآخر يقف ، والبلغ من لم يقصر نظمه عن نثره ، ولم يزر كلامه بشعره ، فهل تروون للجاحظ شعراً رائعاً ؟ قلنا لا ، قال : فهلوما إلى كلامه ، فهو بعيد الإشارات ، قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، منقاد لعُريان الكلام يستعمله ، نقور من معتاصه يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة ؟ »

وهذا حكم أدبي دقيق على الجاحظ يدل على أن البديع قرأه وفهمه ، وعرفه معرفة صحيحة ، وإن كنا لا نتفق معه فيه وفي تفاصيله ، فالجاحظ لا يلام بأنه لا يقول الشعر . أما أنه يستعمل عُريان الكلام وينفر من الاستعارات والكلمات العويصة ، فذلك حقه . ولعل أدبه بهذه الخصائص نفسها يفوق أدب البديع ومعاصريه . ونحن لا نستطيع بحال أن نقبل من البديع هذه الاستهانة بالجاحظ على أساس أنه ليس عنده ألفاظ مصنوعة ولا كلمات غير

(١) يقطف : يسير ببطء ، يريد أنه نائر لا شاعر .

مسموعة ، فليس هذا عنوان التفوق الأدبي ، إنما هذا أسلوب البديع ومعاصريه ،  
وبه كانوا يقيسون البلغاء والبلاغة .

ون الموضوعات في مقامة البديع موضوع الوعظ الديني ، فقد كتب فيه  
مقامتين هما المقامة الأهوازية والمقامة الوعظية ، ويترسل في الأخيرة على هذا  
النحو :

« أيها الناس ! إنكم لم تُتَمَرَّكُوا سُدِّي ، وإن مع اليوم غدًا ، وإنكم  
واردوا هُوَّة<sup>(١)</sup> ، فأعدُّوا لها ما استطعتم من قوَّة ، وإن بعد المعاش معادًا ،  
فأعدُّوا له زادًا ، ألا لا عُدْر ، فقد بُيِّنَتْ لَكُمْ المحجَّة ، وأخذت  
عليكم الحجَّة ، من السماء بالحبر ، ومن الأرض بالعبر ، ألا وإن الذي  
بدأ الخلقَ عليمًا ، يحيي العظام رميمًا ، ألا وإن الدنيا دارُ جهاز ، وقنطرة  
جواز ، من عبرها سليم ، ومن عمَّرها ندم . »

والبديع في هذا الجانب الديني نراه ضد الملحدين ، بل نراه يأخذ جانب  
أهل السنة ويشنُّ حربًا شعواء على خصومهم من المعتزلة . ومقامته المارستانية  
تصور هذا الجانب فيه تصويرًا دقيقًا ؛ إذ نرى أبا الفتح الإسكندري نازلا في  
مارستان ، ويزوره عيسى بن هشام مع أبي داود العسكري المتكلم ، فسرعان  
ما يعرفه أبو الفتح ، ويورد على مسمعه نقداً شديداً للمعتزلة وآرائهم .

واعلم في هذا كله ما يشهد بأن البديع حتمل مقامته كثيراً من الجوانب  
التعليمية ، وهناك مقامة تسمى المقامة العلمية ، وفيها نراه يصف لطالب  
العلم طريقه الصعب ، وما ينبغي أن يستعين به عليه حتى يحصل على مرامه  
منه ، فلا بد له من الدأب والحفظ والدرس والفهم والتحقيق والتعليق ، حتى  
يفتق سمعه ، وحتى يتغلغل العلم إلى صدره .

ويمكن أن نسلك في هذا الجانب التعليمي المقامة الأسدية التي جمع فيها  
كل ما استطاع من أوصاف للأسد ، والمقامة الحمدانية ، وهي تصف

منظراً حدث في حياة سيف الدولة المتوفى سنة ٣٥٦ هـ ، وفيها يعرض علينا أبو الفتح أوصافاً مختلفة للفرس ، وكأنه ينشد متناً لغوياً فيه وفي شياته . ونضع في هذا الاتجاه أيضاً المقامة الغيلانية التي يظهر فيها الشاعر الأموي ذو الرمة وينشد بعض شعره .

والمقامتان الأخيرتان تلفتاننا إلى أن المقامات الهمذانية قد تعرض لصور من الحياة الماضية ، ومثلها المقامة الصيمرية التي تتحدث عن محمد بن إسحق الصيمري المتوفى سنة ٢٧٥ للهجرة .

ولكن ينبغي أن لا نفهم من ذلك أن البديع كان يعني بالماضي أكثر مما يعني بالحاضر ، فقد وصف في مقاماته كثيراً من وجوه الحياة في عصره على نحو ما نرى في المقامة البغدادية وهي تصور الحياة في بغداد لعصره . وقد أعطانا في المقامة النيسابورية صورة دقيقة لفساد القضاء والقضاة في زمنه ، إذ نراه يذكر على لسان عيسى بن هشام أنه صلى الجمعة بنيسابور ، فلما قضاها مرّ به شخص ، فسأل عنه من بجانبه ، إذ رآه يلبس قلنسوة القضاء ، فقال له :

« هذا سُوسٌ لا يقع إلا في صوف الأيتام ، وجَرَادٌ لا يسقط إلا على الزرع الحرام ، ولصٌّ لا يَنْقُبُ إلا خزانة الأوقاف ، وكردى لا يُغَيِّرُ إلا على الضعاف ، وذئبٌ لا يَفْتَرِسُ عبادَ الله إلا بين الركوع والسجود ، ومغاربٌ لا يَنْهَبُ مالَ الله إلا بين العهود والشهود . وقد لَبِسَ دَنِيئَتَهُ (١) وخلع دينيَّته ، وسوى طيلسانه (٢) ، وحرفَ يده ولسانه ، وقصّر سبّاله (٣) ، وأطال حباله . . . . . وبَيَّضَ لحيته ، وسودَّ صحيفته ، وأظهر ورعه ، وستر طمّعه » .

(١) الدنية : قلنسوة القاضي .

(٢) الطيلسان : كساء يوضع على الرأس ويسبل على الكتفين .

(٣) السبال : الشارب .

وليس فوق هذا بيان لظلم قاض وطغيانه وفساد ضميره ، فهو ممن يأكلون أموال الناس بالباطل ، يأكل مال الوقف واليتيم ، ويمضغ حق الضعيف والفقير : لا يخشى إلاّ ذمة .

وهي صورة سيئة للقضاء في عصره . وتتخلل المقامات صور مختلفة عن حياة الناس المعاصرين له وأطعمتهم وأكسيتهم ، وخمرهم ولطوهم وسلوكهم ونفاقهم . وكل ذلك شاهد ناطق بأن مقامات البديع تمثل حياة المجتمع لعصره خير تمثيل .

على أن هناك مقامة ينبغي أن نقف عندها ، لا لأنها تعبر عن العصر أو ما قبل العصر ، ولكن لأنها أوحى لبعض الأدباء بأعمال باهرة ، وهي المقامة الإبلية ، وهي تدور على لقاء عيسى بن هشام لإبليس في واد من وديان الجن ، إذ ضلّت منه إبل ، فخرج في طلبها ، وما زال يطلبها حتى حلّ في واد خضير ، به أنهار وأشجار وأزهار ، وشيخ جالس فسأّم عليه ، وردّ السلام ، وأمره بالجلوس ، فامتل ، وسأله : هل ترّوى من أشعار العرب شيئاً ؟ فقال : نعم وأنشده لامرئ القيس وآبيد وطرفة ، فلم يطرب لشيء من ذلك ، وعرض عليه أن ينشده من شعره ، فأنشده قصيدة لجرير .

فعجب عيسى بن هشام من انتحاله قصيدة جرير ، وبعد حوار قصير بينهما قال له إبليس : « ما أحدٌ من الشعراء إلا ومعه مُعين منا ، وأنا أملت على جرير هذه القصيدة ، وأنا الشيخ أبو مرّة » وغاب بعد هذا الكلام ، ووجد عيسى بن هشام نفسه وحيداً .

ولاريب في أن هذه المقامة الطريفة هي التي أوحى لابن شهيد في الأندلس أن يكتب رحلته المشهورة في عالم ما وراء الطبيعة ، وهي الرحلة المعروفة باسم « التوابع والزوابع » ويقصد بها الجن والشياطين إذ ترعى له شيطان ، وقد أرّجح عليه في شعر ينظمه ، فأجازه ، وتعارفا ، فطلب إليه ابن شهيد أن يلقي شياطين الشعراء والكتاب السابقين معه ، فجمله على جناحه ، ونزل به

وادی الجن ، حيث لقيهم . وكان كلما لقي شيطاناً لشاعر مشهور أنشده من شعر صاحبه ، ثم من شعره الخاص ، فيعجب به ، ويحيزه اعترافاً بمهارته الفنية وقدرته البلاغية . ولقى شياطين الكتاب كما لقي شياطين الشعراء وعرض عليهم بعض رسائله ، وخاصة رسالته في الحلواء . وهو يتأثر فيها المقامة المصيرية لبديع الزمان ، ولا نلبث أن نراه يلتقي بشيطانه المسمى زُبْدَةَ الحقب ، ويحاول أن يُجَارِيه في بعض أوصافه التي جاءت في المقامات . وما يزال به حتى يعلن له تفوقه وإحسانه ، ويحيزه على إبداعه وافتنانه .

وواضح ما بين العاملين من صلة شديدة ، فهما جميعاً يدوران على لقاء شياطين الشعراء وراء علمنا في وادي الجن . ويصرح ابن شهيد بلقائه لشيطان بديع الزمان ، ويعرض علينا صاحبه مثلاً رفيعاً من أمثلة الفن يحتذى على مثاله . وكل ذلك يثبت إثباتاً قاطعاً أن ابن شهيد في رحلة « التوابع والزوابع » إنما عارض البديع في مقامته الإبلية .

ويذهب بعض الباحثين إلى أن الذي ألهم أبا العلاء « رسالة الغفران » هو ابن شهيد في رحلته المذكورة ، لأنها هي الأخرى رحلة فيها وراء الطبيعة ، إلا أنها ليست في واد من وديان الجن ، وإنما هي في الجنة وعلى الصراط ويوم البعث . ولكنها على كل حال رحلة فيها وراء المشاهد المحسوس .

ويزعم آخرون أن ابن شهيد هو الذي استوحى رسالة الغفران رحلته ، ولعل في هذا الرأي الذي قدمناه ما يبطل نزاع هؤلاء المتخصصين ، فالمسألة تُرَد إلى القرن الرابع وإلى بديع الزمان ، فهو الذي استغل أولاً فكرة شياطين الشعراء التي قرأها في كتب الأدب العربي ، واستخرج منها مقامته الإبلية . ثم خلفه ابن شهيد وأبو العلاء في القرن الخامس ، فألّف كل منهما رحلة فيها وراء علمنا ، واستمد ابن شهيد مباشرة من البديع ومقامته ، فلم يدخل إلا تغييرات قليلة ، وتعديلات طفيفة .

## الأسلوب

أول ما يلفت القارئ في مقامة البديع أنها وضعت في شكل حوار قصصي ، وهو حوار يمتد بين عيسى بن هشام الراوى وأبي الفتح الإسكندري البطل ، أو الأديب المحتال الذى يعرف كيف يلعب بعقول الناس ، ويستخرج منهم الدراهم عن طريق خلابته وفصاحته .

والحوار يأتى على الهامش ، فالقصد الأول في مقامة البديع إنما هو الإتيان بمجاميع من الألفاظ والأساليب التى تخلب السامعين وتخرق بروعتها حجاب قلوبهم . فليس للبديع غاية قصصية بالمعنى الدقيق ، وإنما غايته أن يصوغ ألفاظاً ، أو قل أنغاماً من الكلام ويصبغها بالألوان الفنية التى كانت معروفة في عصره .

ومن أجل ذلك اختار صيغة السجع لمقاماته ، وكانت هى الصيغة التى يعجب بها عصره ، أعجب بها عند ابن العميد في رسائله ، كما أعجب بها عند غيره من تلاميذه ، فكان لا بد للبديع كى ينال استحسان معاصريه من أن يعتمد اعتماداً على هذه الوسيلة ، ويستخدمها في كل ما ينمق من مقاماته ويوشى من أحاديثه .

وهو يُظهر براعة فائقة في استخدامها ، حقاً إنه لا يلتزمها دائماً ، ولكنه يمنح إليها غالباً ، فالأصل عنده أن يسجع ، ولا يترك السجع إلا نادراً . وكانت تسعفه في ذلك حافظة نادرة ، وبديهة حاضرة ، وذكاء حاد ، وإحساس دقيق باللغة ومرادفاتها وأبنيثها واستعمالاتها المختلفة .

فما هى إلا أن يتوجه إلى الكلام ، حتى تنهال عليه الألفاظ من كل جهة ،

كأنها السيول تَفِد من كل صوب . وكان يعرف كيف يُفيد من هذه السيول ، فهو يضع الكلمات مواضعها في دقة وبراعة منقطعة النظير .

ومن هنا كان سجعها في جملته خفيفاً رشيقاً ، فليس فيه تكلف ، وليس فيه صعوبة ولا جفاء فهو دائماً كأنما يستمد من فيَض لغوى لا ينفد . وتراه إزاء المعنى ، وكأنه الصائد الماهر الذي يحسن إلقاء شباكه على صيده ، فلا يخطئه ، بل يصيبه دائماً ، ويخيل إليك كأنه يجمع نفسه جمعاً لإزاء الكلمات اللغوية ، فإذا هو قد أحصاها إحصاء ، وإذا هو يجيء بما يوافقه ويريده منها وكأنه يمسك بزمامه .

فليس هناك معنى يعسر على البديع التعبير عنه ، وليست هناك كلمات تختفي منه وراء حواجز اللغة ومتشابكاتها ، بل الكلمات تقبل عليه من كل جانب ليختار منها ما يريد له هواه ، وما تريد له حاسته اللغوية الدقيقة .

وهذا كله يدل من جهة على محصول لغوى واسع ؛ كما يدل على ذوق بديع ، يعرف كيف يختار الكلمة المناسبة ، وكيف يضعها في مواضعها ، فلا نبوء ولا شذوذ ، بل دائماً دقة وضبط وإحكام في عذوبة وسلاسة وتناسق وانسجام .

وهو يمسح على ذلك بروح فكاهية بديعة تتخلل مقاماته ، فتجعلها أكثر قبولاً لدى النفوس ، ويظهر أن البديع كان ينطوى على مَرَح في داخله ، فسكبه في مقاماته . وهو يتخذ صوراً مختلفة . وقد تمضي المقامة وكلها دُعابة وفكاهة . ونحن نسوق للقارئ مقاماته « المصيرية » نسبة إلى المصيرة ( وهى لحم يطبخ باللبن المصير أى الحامض ) ليطلع منها على جملة خصائصه وما يطبع به أساليبه من مهارة . قال :

« حَدَّثَنَا عيسى بن هشام ، قال : كنت بالبصرة ومعى أبو الفتح الإسكندرى رجلُ الفصاحة يدعوها فتجيبه ، والبلاغة يأمرها فتنطبعه ، وحضرنا معه دعوة بعض التجار ، فقدمت إلينا مصيرة ، تُثني على الحضارة ،

وتخرج في الغضارة<sup>(١)</sup> وتؤذن بالسلامة ، وتشهد لمعاوية - رحمه الله - بالإمامة<sup>(٢)</sup> ، في قصصة يزل<sup>(٣)</sup> عنها الطرف ، ويموج فيها الظرف .  
فلما أخذت من الخوان مكانها ، ومن القلوب أوطانها ، قام أبو الفتح الإسكندري بلغتها وصاحبها ويمقتها وآكلها ، ويثلبها وطبخها ، وظنناها يمزح فإذا الأمر بالصد ، وإذا المزاح عين الجيد ، وتنحى عن الخوان ، وترك مساعدة الإخوان . ورفعناها فارتفعت معها القلوب ، وسافرت خلفها العيون ، وتحلبت لها الأفواه ، وتلمظت لها الشفاه ، واتقدت لها الأكباد ، ومضى في إثرها الفؤاد ، ولكننا ساعدناه على هجرها ، وسألناه عن أمرها ، فقال : قصتي معها أطول من مصيبي فيها ، ولو حدثتكم بها لم آمن المقت ، وإضاعة الوقت ، قلنا هات ، قال :

دعاني بعض التجار إلى مصرية ، وأنا ببغداد ، ولزمني ملازمة الغريم ، والكلب لأصحاب الرقيم<sup>(٤)</sup> ، إلى أن أجبته إليها ، وقمنا ، فجعل طول الطريق يثنى على زوجته ، ويفديها بمهجته ، ويصف حدقها في صنعتها ، وتأنقها في طبخها ، ويقول : يا مولاي لو رأيتها ، والخيرفة في وسطها ، وهي تدور في الدور ، من التنور<sup>(٥)</sup> إلى القدور<sup>(٦)</sup> ، ومن القدور إلى التنور ، تنفثُ بفيها النار ، وتدقُّ بيديها الأبرار ، ولو رأيت الدخان وقد غبر<sup>(٧)</sup> في ذلك الوجه الجميل ، وأثر في ذلك الخد الصقيل ، لرأيت منظرًا تحار فيه العيون . وأنا أعشقها لأنها تعشقتني ؛ ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حكيلته وأن يستعد بظعينته<sup>(٨)</sup> ، ولا سيما إذا كانت من طينته ، وهي ابنة عمي لحا<sup>(٩)</sup> ، طينتها طينتي ، ومدينتها مدينتي ، وعمومتها عمومتى ، وأرومتها<sup>(١٠)</sup>

(١) الغضارة : القصعة الكبيرة .

(٢) يشير إلى ما يروى من أن معاوية كان نهياً أكلوا . (٣) يزل : ينزلق .

(٤) أصحاب الرقيم : أهل الكهف وقصتهم مشهورة ، وفيها كلهم لا يفارقهم .

(٥) التنور : ما يخبز فيه . (٦) القدور : جمع قدر ، وهو الإناء يطبخ فيه .

(٧) غبر : أثر . (٨) الظئنة : الحليلة ، وهي الزوجة .

(٩) ابن الم لحا : أقرب أبناء الم . (١٠) الأرومة : الأصل .

أرومتي ، لكنها أوسع مني خُلُقًا ، وأحسن خَلْقًا ، وصدّعتني بصفات زوجته ، حتى انتهينا إلى محلّته <sup>(١)</sup> ، ثم قال :

يا مولاي ! ترى هذه المحلّة ! هي أشرف شمال بغداد ، يتنافس الأبخار في نزولها ، ويتغاير <sup>(٢)</sup> الكبار في حلولها ، ثم لا يسكنها غير التجار ، وإنما المرء بالبحار . وداري الواسطة <sup>(٣)</sup> من قلاذتها ، والنقطة من دائرتها ، كم تقدّر يا مولاي أنفق على كل دار منها ؟ قلّه تخميناً ، إن لم تعرفه يقيناً ، قلت : الكثير ، فقال : ياسبحان الله ! ما أكبر هذا النفل ! تقول الكثير فقط ، وتنفس الصعداء ، وقال : سبحان من يعلم الأشياء . وانتهينا إلى باب داره فقال : هذه داري كم تقدّر يا مولاي أنفقت على هذه الطاقة <sup>(٤)</sup> ! أنفقت والله عليها فوق الطاقة ، ووراء الفاقة <sup>(٥)</sup> ، كيف ترى صنعتها وشكلها ؟ أرايت بالله مثلها ؟ انظر إلى دقائق الصنعة فيها ، وتأمل حُسْنَ تعريجها ، فكأنما حُطَّ بالبِرْكار <sup>(٦)</sup> ، وانظر إلى حِدْق النجم ، في صنعة هذا الباب اتخذه من كم <sup>(٧)</sup> ، قلّ : ومن أين أعلم ؟ هو ساج <sup>(٨)</sup> من قطعة واحدة لا مآروض ولا عَفِن ، إذا حُرِّك أن ، وإذا نُقِرَ طَسَن ، من اتخذه يا سيدي ؟ اتخذه أبو إسحق بن محمد البصرى وهو والله رجلٌ نظيف الأثواب ، بصير بصنعة الأبواب ، خفيف اليد في العمل ، لله درٌّ ذلك الرجل ، بحياتي لا استعنت إلا به على مثله . وهذه الحلقة <sup>(٩)</sup> تراها اشترىتمها في سوق <sup>(١٠)</sup> الطرائف من عمران الطرائفي بثلاثة دنانير مُعَرِّية <sup>(١١)</sup> كم فيها يا سيدي من الشبّة <sup>(١٢)</sup> ! فيها ستة أرطال ، وهي تدور بلولب في الباب بالله

(١) المحلّة : الحى .  
 (٢) يتغاير الكبار : يفار بعضهم من بعض .  
 (٣) الواسطة : الجوهرة الكبيرة في العقد . (٤) الطاقة : الشباك . (٥) يريد أنه أنفق عليها ما جر عليه الفقر والفاقة .  
 (٦) البركار (البرجل) : آلة لرسم الدوائر والأقواس . (٧) يريد : من كم لوح أو قطعة . (٨) الساج : شجر جيد .  
 (٩) يريد حلقة الباب . (١٠) سوق الطرائف : سوق كانت ببغداد تباع فيها النفائس .  
 (١١) معزية : كاملة ، وبذلك اشتهرت دنانير المعز بالله الفاطمي صاحب مصر ، إذ كانت أثقل من غيرها في الوزن .  
 (١٢) الشبه : النحاس .

دَوَّرَهَا ، ثم انْفَرَّهَا وَأَبْصَرَهَا ، وَبِحَيَاتِي عَلَيْكَ لَا اشْتَرَيْتَ الحَلِيقَ إِلَّا مِنْهُ ، فَلَيْسَ يَبِيعُ إِلَّا الأَعْلَاقَ <sup>(١)</sup> . ثم قَرَعَ البَابَ وَدَخَلْنَا الدَّهْلِيْزَ ، وَقَالَ : عَمَّرَكَ اللهُ يَا دَارَ ، وَلَا خَرَّبَكَ يَا جِدَارَ ، فَمَا أَمِنَ حَيْطَانُكَ ، وَأَوْثَقَ بِنْيَانُكَ ، وَأَقْوَى أُسَاسُكَ ! تَأَمَّلْ بِاللَّهِ مَعَارِجَهَا <sup>(٢)</sup> ، وَتَبَيَّنْ دَوَائِلَهَا وَخَوَارِجَهَا ، وَسَلِّسْ كَيْفَ حَصَلَتْهَا ، وَكَمْ مِنْ حِيلَةٍ احْتَلَمَتْهَا ، حَتَّى عَقَدْتَهَا <sup>(٣)</sup> ؟ كَانَ لِي جَارٌ يُكْنَى أَبُو سَلْيَانَ يَسْكُنُ هَذِهِ المَحَلَّةَ وَلَهُ مِنَ المَالِ مَا لَا يَسَعُهُ الخَزْنُ ، وَمِنَ الصَّامِتِ <sup>(٤)</sup> مَا لَا يَحْصِرُهُ الوَزْنُ ، مَاتَ رَحِمَهُ اللهُ وَخَلَّفَ خَلْفًا أَتْلَفَهُ بَيْنَ الخَمْرِ وَالزَّمْرِ ، وَمَزَّقَهُ بَيْنَ النَّرْدِ وَالْقَمَرِ <sup>(٥)</sup> ، وَأَشْفَقْتُ أَنْ يَسُوْقَهُ فَائِدَ الاضْطِرَارِ ، إِلَى بَيْعِ الدَّارِ فَيَبِيعُهَا فِي أَثْنَاءِ الضَّمَجْرِ ، أَوْ يَجْعَلُهَا عَرْضَةً لِلخَطَرِ ، ثُمَّ أَرَاهَا ، وَقَدْ فَاتَنِي شِرَاهَا ، فَأَنْقَطَعَ عَلَيْهَا حَسْرَاتٌ ، إِلَى يَوْمِ المَمَاتِ ، فَعَمِدْتُ إِلَى أَتْوَابٍ لَا تَنْضُ <sup>(٦)</sup> تِجَارَتِهَا فَحَمَلْتُهَا إِلَيْهِ ، وَعَرَضْتُهَا عَلَيْهِ ، وَسَاوَمْتُهُ عَلَى أَنْ يَشْتَرِيهَا نَسِيئَةً <sup>(٧)</sup> ، وَالمُدْبِرِ يَحْسِبُ النَسِيئَةَ عَطِيَّةً ، وَالمُتَخَلِّفَ يَعْقِدُهَا هَدِيَّةً ، وَسَأَلْتُهُ وَثِيْقَةً بِأَصْلِ المَالِ فَفَعَلَ وَعَقَدَهَا لِي ، ثُمَّ تَغَافَلْتُ عَنْ اقْتِضَائِهِ <sup>(٨)</sup> حَتَّى كَادَتْ حَاشِيَةُ حَالِهِ تَسْرِقُ فَأَتَيْتُهُ فَاقْتَضَيْتُهُ ، وَاسْتَمَهَلَنِي فَأَنْظَرْتُهُ <sup>(٩)</sup> ، وَالمَسَّ غَيْرَهَا مِنَ الثِّيَابِ فَأَحْضَرْتُهُ ، وَسَأَلْتُهُ أَنْ يَجْعَلَ دَارَهُ رَهِيْنَةً لَدِي ، وَوَثِيْقَةً فِي يَدِي ، فَفَعَلَ ثُمَّ دَرَجْتُهُ <sup>(١٠)</sup> بِالمَعَامَلَاتِ إِلَى بَيْعِهَا حَتَّى حَصَلْتُ لِي بِجِدِّ صَاعِدٍ <sup>(١١)</sup> ، وَبَخْتِ مَسَاعِدِ ، وَقُوَّةِ سَاعِدِ ، وَرُبِّ سَاعِ لِقَاعِدِ ، وَأَنَا بِمُحَمَّدِ اللهِ مَجْدُودٍ <sup>(١٢)</sup> ، فِي مِثْلِ هَذِهِ الأَحْوَالِ مُحَمَّدُ ، وَحَسْبُكَ يَا مَوْلَايَ أَنِّي كُنْتُ مِنْذُ لَيَالٍ نَائِمًا فِي البَيْتِ مَعَ فِيهِ إِذْ قُرِعَ عَلَيْنَا البَابُ ،

(١) الأَعْلَاقُ : النَفَائِسُ . (٢) مَعَارِجُهَا : سَلَالِمُهَا . (٣) عَقَدْتُهَا : مَلَكَتُهَا وَاقْتَنَيْتُهَا . (٤) الصَّامِتُ : المَالُ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ . (٥) النَّرْدُ : لَعِبَةُ العَالَوَالَةِ ، وَالقَمَرُ : القَمَارُ . (٦) تَنْضُ : تَنْفِقُ . (٧) النَسِيئَةُ : البَيْعُ المُؤَجَّلُ . (٨) اقْتِضَائِهِ : مَطَالِبَتُهُ بِالدِّينِ وَمَقَاضَاتِهِ . (٩) أَنْظَرْتُهُ : أَمَهَلْتُهُ . (١٠) دَرَجُهُ : خَدَعَهُ بِالتَّدْرِيجِ . (١١) جِدُّ صَاعِدٍ : حَظُّ صَاعِدٍ إِلَى السَّمَاءِ . (١٢) مَجْدُودٌ : مَحْظُوظٌ .

فقلت : من الطارق المُنْتَاب<sup>(١)</sup> ؟ فإذا امرأة معها عقْدُ لآل ، في جلدة<sup>(٢)</sup> ماء ورقّة آل<sup>(٣)</sup> ، تعرضه للبيع فأخذته منها إخذةً خلس<sup>(٤)</sup> ، واشتريته بثمانٍ بخس ، وسيكون له نفع ظاهر ، وربحٌ وافر ، بعون الله تعالى ودوائك . وإنما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة جدّي في التجارة ، والسعادة تُنَبِّط<sup>(٥)</sup> الماء من الحجارة ، الله أكبر لا ينبئك أصدق من نفسك ، ولا أقرب من أمسك ! اشتريت هذا الحصير في المناداة ، وقد أخرج من دور آل<sup>(٦)</sup> الفرات ، وقت المصادرات ، وزمن الغارات ، وكنت أطلب مثله منذ الزمن الأطول فلا أجد ، والدهر حُبَلْتِي ليس يُدْرِي ما يبلد ، ثم اتفق أني حضرت باب الطاق<sup>(٧)</sup> ، وهذا يُعْرَضُ في الأسواق ، فوزنت فيه كذا وكذا ديناراً . تأمّل بالله دقّته ولينه وصنعتة ولونه فهو عظيم القدر ، لا يقع مثله إلا في الندر<sup>(٨)</sup> . وإن كنت سمعت بأبي عمران الحصيري فهو عمله وله ابنٌ يخلّفه الآن في حانوته ، لا توجد أغلاق الحُصُر إلا عنده ، فبِحياقي لا اشتريت الحُصُر إلا من دُكَّانِه ، فالمؤمن ناصحٌ لإخوانه ، لا سيما من تحرّم<sup>(٩)</sup> بيخوانه . ونعود إلى حديث المَضْبِرَة ، فقد حان وقت الظهيرة ، يا غلام ! الطَّسَّتْ والماء . فقلت : الله أكبر ربما قَرُبَ الفرج ، وسهل المخرج ، وتقدّم الغلام ، فقال : ترى هذا الغلام ! إنه روي الأصل عراقياً النشء ، تقدّم يا غلام واحسِر<sup>(١٠)</sup> عن رأسك ، وشمّر عن ساقك ، وانض<sup>(١١)</sup> عن ذراعك ، وافترّ عن أسنانك ، وأقبل وأدبر ، ففعل الغلام ذلك ، وقال التاجر : بالله من اشتراه ؟ اشتراه والله أبو العباس ، من النخّاس .

(١) المنتاب : الذي يأتي مرة بعد مرة . (٢) يريد أن اللالي تشبه الماء في صفاتها .

(٣) الآل : السراب . (٤) خلس : اختلاس . (٥) تنبّط : تخرج .

(٦) آل الفرات من أعيان بغداد ، تولى واحد منهم وزارة المقتدر في أوائل القرن الرابع

للهجرة ، ونكبه وصادر أمواله . وإلى ذلك يشير بديع الزمان .

(٧) باب الطاق : من أبواب بغداد . (٨) الندر : الندرة . (٩) تحرّم :

أصبح له حرمة . (١٠) احسر : اكشف . (١١) انض : انزع ثوبك عنه .

ضع الطسست وهات الإبريق . فوضعه الغلام وأخذته التاجر وقلبته وأدار فيه النظر ثم نقره ، فقال ، انظر إلى هذا الشبّه كأنه جذوة الذهب ، أو قطعة من الذهب ، شبهه الشام ، وصنعة العراق ليس من خلقتان<sup>(١)</sup> الأعلاق ، قد عرف دور الملوك ودارها<sup>(٢)</sup> ، تأمل حسنه ، وسلى : متى اشتريته ؟ اشتريته والله عام المجاعة ، وادخرته لهذه الساعة . يا غلام ! الإبريق ! فقدّمه ، وأخذته التاجر فقلبته ، ثم قال : وأنبويه منه<sup>(٣)</sup> ، لا يصلح هذا الإبريق إلا لهذا الطست ، ولا يصلح هذا الطست إلا مع هذا الدست<sup>(٤)</sup> ولا يحسن هذا الدست إلا في هذا البيت ، ولا يجمع ل هذا البيت إلا مع هذا الضيف . أرسل الماء يا غلام ، فقد حان وقت الطعام ، بالله ترى هذا الماء ما أصفاه ! أزرق كعين السنور<sup>(٥)</sup> وصاف كقضيب البثور ، استقى من الفرات ، واستعمل بعد البيات ، فجاء كلسان<sup>(٦)</sup> الشمعة ، في صفاء الدمعة ، وليس الشأن في السقماء<sup>(٧)</sup> ، الشأن في الإناء ، لا يدلّك على نظافة أسبابه ، أصدق من نظافة شرابه . وهذا المنديل سلّني عن قصته . فهو نسج جرجان ، وعمل أرجان<sup>(٨)</sup> ، وقع إلى فاشتريته فاتخذت امرأتي بعضه سراويل<sup>(٩)</sup> ، واتخذت بعضه منديلا ، دخل في سراويلها عشرون ذراعاً ، وانتزعت من يدها هذا القدر انتزاعاً ، وأسلمته إلى المَطْرَزِ حتى صنعه كما تراه وطرزه ثم رددته من السوق ، وخزنته في الصندوق ، وادخرته للظراف . من الأضياف ، لم تدلّه<sup>(١٠)</sup> عرب العامة بأيديها ، ولا النساء بمأقيها ، فلكل نفيس يوم ،

(١) الخلقان : البالي . (٢) دارها : دار فيها . (٣) أنبويه منه : يريد أن خرطومه الذي ينزل منه الماء منحوت منه ، فليس موصولا به . وهذا كناية عن الحدق في صنعته .  
 (٤) الدست : المجلس . (٥) السنور : الهر . (٦) لسان الشمعة : فليلتها المشتعلة . (٧) يقول إن صفاء الماء لا يأتي من مهارة الساق ، وإنما من صفاء الإناء . يريد أن يبلغ في مدح إنائه . (٨) أرجان وجرجان : من بلاد إيران .  
 (٩) السراويل : ما يلبس موضع الإزار ، ويشد في الوسط .  
 (١٠) تدله : تمتهه .

ولكل آلة قوم ، يا غلام ! الخوان ، فقد طال الزمان ، والقصاص ، فقد طال المصاع <sup>(١)</sup> ، والطعام ، فقد كثر الكلام . فأتى الغلام بالخوان ، وقلبه التاجر على المكان ، ونقره بالبنان ، وعجمه <sup>(٢)</sup> بالأسنان ، وقال : عَمَرَ اللهُ بَغْدَادَ فَمَا أُجُودُ مَتَاعَهَا ، وَأظرفُ صُنَاعَهَا . تأمَّلْ بالله هذا الخوان ! وانظر إلى عَرَضَ مَتْنِهِ ، وخفَّةَ وزنه ، وصلابة عودِه وحسن شكله ، فقلت : هذا الشكل ، فتى الأكل ، فقال : الآن ؛ عَجَلْ يا غلام الطعام . لكنَّ الخوان قوائمه منه .

قال أبو الفتح : فجاشت : نفسى ، وقلت : قد بَقِيَ الخَبِيزُ وآلاته ، والخَبِيزُ وصفاته والحنطة من أين اشترت أصلاً ، وكيف اكَتَرَى <sup>(٣)</sup> لها حَسَلاً ، وفي أَيِّ رَحَى طَحَنَ ، وإِجَانَةَ <sup>(٤)</sup> عَمَجَنَ ، وأى تَنُورٍ سَجَرَ <sup>(٥)</sup> وخبَّاز استأجر ، وبقى الحطب من أين احْتَضَبَ : ومتى جُلِبَ ، وكيف صُفِّفَ ، حتى جُفِّفَ ، وحُبِّسَ ، حتى يَبِسَ ، وبقى الخبَّاز ووصفه ، والتلميذ <sup>(٦)</sup> ونعته ، والدقيق ومدحه ، والخميرُ وشرحه ، والمليح وملاحة ، وبقيت السُكَّرَجَاتُ <sup>(٧)</sup> من اتخذها ، وكيف انقلدها ، ومن استعملها ، ومن عملها ، والخَلُّ كيف انْتَقَى عِنَبَهُ ، واشتُرَى رُطْبَهُ ، وكيف صُهْرَجَتْ <sup>(٨)</sup> مِعْصَرَتُهُ ، واستُخْلِصَ لُبُّهُ ، وكيف قَيَّرَ حَبَّهُ <sup>(٩)</sup> ، وكم يساوى دَنَهُ . وبقى البقل كيف احتيل له حتى قُطِفَ ، وفي أَيِّ مَبْقَلَةٍ <sup>(١٠)</sup> رُصِفَ ، وكيف تُؤنَّقُ حتى نُظِّفَ . وبقيت المضيرة كيف اشترى لحمها . ووفى شَحْمُهَا ، ونصبتُ قِدْرُهَا ، وأججتُ نارها ، ودُقَّتْ أجزارها ،

- (١) المصاع : القتال : سمي به ما هو فيه مع صاحبه من هذه الحرب . (٢) عجمه : اختبره . (٣) اكترى : استأجر . (٤) الإجانة : الإناء الذى يعجن فيه . (٥) صهر التنور : ملأه وقوداً . (٦) التلميذ هنا : الصبي والتابع . (٧) السكرجات : صحاف صفار للكامخ . (٨) صهرجت : طليت بصنع الصاروخ . (٩) قير : طلى بالقار وهو القطران . والحب : الحرة الكبيرة . (١٠) المبقلة : ما يوضع فيه البقل .

حق أجيد طَبَّخُهَا ، وَعُقِّدَ<sup>(١)</sup> مَرَقُهَا . وهذا خَطْبٌ يَطْمُ<sup>(٢)</sup> ، وأمر لا يَتَمُّ ، فقلت . فقال : أين تريد؟ فقلت : حاجةً أَقْصِيهَا . فقال : يا مولاي تريد كَنِيْفًا يُزْرَى بِرَبِيْعٍ<sup>(٣)</sup> الأَمِيرِ وَخَرِيْبِي<sup>(٤)</sup> الوَازِرِ ، قَدْ جُصِّصَ<sup>(٥)</sup> أَعْلَاهُ ، وَصَهْرَجَ أَسْفَلُهُ ، وَسُطِحَ سَقْفُهُ ، وَفَرِشْتَ بِالْمَرْمَرِ أَرْضَهُ ، يَزَلُّ<sup>(٦)</sup> عَنِ حَائِطِهِ الذَّرُّ فَلَإِ يَلْتَقِ ، وَيَمْشِي عَلَى أَرْضِهِ الذَّبَابُ فَيَزَلْتَقِ ، عَلَيْهِ بَابٌ غَيْرَانُهُ<sup>(٦)</sup> مِنْ خَلِيْبِي سَاجٍ وَعَاجٍ ، مَزْدُوجِيْنَ أَحْسَنَ اَزْدِوَاجٍ ، يَتَمَنَّى الضَّيْفَ أَنْ يَأْكُلَ فِيهِ ، فقلت : كُلُّ أَنْتَ مِنْ هَذَا الْجِرَابِ ، لَمْ يَكُنِ الْكَنِيْفُ فِي الْحِسَابِ . وَخَرَجْتَ نَحْوَ الْبَابِ ، وَأَسْرَعْتَ فِي الذَّهَابِ ، وَجَعَلْتَ أَعْدُوهُ وَهُوَ يَتَبَعْنِي وَيَصِيحُ : يَا أَبَا الْفَتْحِ الْمَضْيِرَةَ ! وَظَنَّ الصَّبِيَانَ أَنْ الْمَضْيِرَةَ لِقَبِّ لِي ، فَصَاحُوا صِيَاحَهُ ، فَرَمَيْتُ أَحَدَهُمْ بِحَجَرٍ ، مِنْ فَرْطِ الضَّجْرِ ، فَلَقِيَ رَجُلٌ الْحَجَرَ بِعِمَامَتِهِ ، فَغَاصَ فِي هَامَتِهِ . فَأَخَذْتُ مِنَ الْعَالِ بِمَا قَدَّمْتُ وَحَدَّثْتُ ، وَمِنَ الصَّفْعِ بِمَا طَابَ وَخَبَّثْتُ . وَحُشِرْتُ إِلَى الْحَبْسِ ، فَأَقَمْتُ عَامِيْنَ فِي ذَلِكَ النَّحْسِ ، فَتَنَدَّرْتُ أَنْ لَا أَكُلَ مَضْيِرَةَ مَا عَشْتُ . فَهَلْ أَنَا فِي ذَا يَا آلَ هَمْدَانَ ظَالِمٌ .

قال عيسى بن هشام : فقبلنا عُدْرَهُ ، وَنَذَرْنَا نَذْرَهُ ، وَوَقَلْنَا قَدِيمًا جَنَّتِ الْمَضْيِرَةَ عَلَى الْأَحْرَارِ ، وَقَدَّمْتُ الْأَرَاذِلَ عَلَى الْأَخْيَارِ .

وهذه المقامة تعرض علينا البديع ، بكل ما أوتى من خفة ورشاقة لا من حيث انتخاب الألفاظ والعبارات حسب ، بل أيضاً من حيث الروح الفكاهي الذي طبع به مقاماته ، فأصبحت حرية بأن تُروى في المجالس ، ويتلقفها الطلاب في الأقاليم الإسلامية المختلفة ؛ إذ يقرعون فيها ما يسرهم عن نفوسهم ،

(١) عقد المرق : غل حتى غلظ .

(٢) يطم : يعظم ويتفاهم .

(٣) ربيعي الأمير : ما يسكنه في الربيع .

(٤) ما يسكنه الوزير في الخريف .

(٥) جصص : طل بالجص وهو الجير .

(٦) غيرانه : جمع غار ، أراد بها الفواصل بين ألواح الباب .

ويرسم الضحك على شفاههم .

ولم تكن نفس البديع مطوية دائماً على الضحك والفكاهة ، فمن يتابعه في رسائله يجده أحياناً يفضي إلى ضروب من التشاؤم . وقد يكون مرجع الخانيين عنده حدة في حسه جعلته مرهف الشعور دقيقه . وهي حدة كان يرافقتها ذكاء شديد وبديهة حاضرة ، فأعده ذلك ليُطْرَف قُرَّاءه بدعاباته وفكاهاته .

ويرى القارئ بجانب ذلك براعة البديع في استخدام السجع ، فالكلمات تتشابهك بأسلاكه ، وكان صائغاً ماهراً يُحسِّن ضمَّ جواهرها بعضها إلى بعض وتكوين عقود منها تأخذ بالأسماع والأبصار . ولا ريب في أن ذلك موهبة يختصُّ بها ، أو قل إنه فنٌّ لم يَرَقْ إليه إلا بعد ثقافة واسعة باللغة ، وتدريب شاق على صناعة أساليبها بحيث وقف وقوفاً دقيقاً على خصائصها الصوتية .

فليس كل سجع يعجبنا ، بل السجع منه الثقيل ومنه الخفيف الذي يرقُّ حتى لكأنه يَشِفُّ عن المعنى الذي يضطرب في عقل صاحبه وقلبه . وكان بديع الزمان يعرف كيف يصوغ لفظه وكيف يعرضه ، وكيف يوقعه ، وكيف يحدث فيه من التموجات الصوتية ما يجعله يدخل على الأذن بدون استئذان كما يقولون .

وواضح أنه يستعين على ذلك بانتخاب ألفاظه ، وتقصير سجعاتها ، وكأنه كان يعرف أن تطويل السجعات من شأنه أن يطيل المسافة الزمنية للأصوات ، فلا يعطيها الرشاقة التي نحسها عنده .

سجعه إذن قصير ، قد أحكم قوالبه وضبط أنغامه ، ولم يكن يكتفى بذلك ، بل كان يضيف إليه تلوينات البديع المعروفة من جناس وغير جناس . واهمَّ خاصة بالتصوير فنسج كثيراً من الأخيلة في أساليبه .

ولعل القارئ لاحظ أن هذه المقامة تخلو من الشعر . وهذه ليست عادته المقامة

المتبعة ، فهو يضمّن مقاماته كثيراً من الشعر ، كما يضمّنها كثيراً من الأمثال وآى القرآن الكريم .

ومر بنا آنفاً أنه عاب الجاحظ في مقامته الجاحظية بأنه « ينفر من معتاص الكلام وغريبه » وأنه « لا يستعمل المهمل غير المسموع » ، وقلنا إن هذا ليس عيباً في الكاتب ، بل لو أن الجاحظ كان من ذوق ناقله أو بعبارة أخرى كان من ذوق بديع الزمان لكان ذلك هو العيب فيه والنقص في بلاغته .

ومن يرجع إلى مقامة البديع يلاحظ فيها كثيراً من اللفظ الغريب ، يحشو به أساليبه كقوله في المقامة القردية على لسان عيسى بن هشام : « بينا أنا بمدينة السلام ، قافلاً من البلد الحرام . أميسُ ميسَ الرجلة ، على شاطئ الدجلة » فقد استخلم كلمة أميس بمعنى أتبختر ، وليس هذا ما نريد أن نقف عنده ، إنما نقف عند كلمة الرجلة فهي جمع رجل ، وهو جمع شاذ ، لم تكن هناك ضرورة لاستخدامه سوى أنه يقصد إلى ذلك قصداً . ومثل هذا قوله في المقامة الموصلية : « فأخذه الجفُّ ، وملكته الأكف » والجفُّ هنا : الجمهور . ومن ذلك قوله في المقامة المارستانية : « الإكراه مرة بالميرة ، ومرة بالدرة » والميرة هنا : العقل .

ولعل المقامة الحمدانية أكثر المقامات ألفاظاً مهملة وحوشية غير مسموعة ، فقد عنيّ فيها بوصف الفرس ، وعرض فيها كل محصوره اللغوي في هذا الوصف وكأنه يؤلف متنّاً في غريب الفرس لا مقامة أدبية .

ولا نرتاب في أن هذا عنده أثر من آثار ابن دريد في أحاديثه التي أشرنا إليها والتي يحتفظ بها كتاب الأملى ، فهي كلها تمتلئ بأوابد اللغة وشواردها المهملة . ولعل في هذا ما يدل على أنه كان يستحضر في ذهنه دائماً صورة الأحاديث المذكورة لشيوعها بين المتعلمين في عصره .

والحق أن مقامته كلها إنما أراد بها إلى غاية تعليمية ، ولذلك حشد فيها هذه الألفاظ الغريبة ، ومع ذلك فلم يكثر منها ؛ إذ كان يأتي بها بين الحين

والحين ، وكان ما يطبع به أساليبه من خفة ومرونة يغطي على مثل هذه الأعشاب ،  
فلا يجعلها تظهر للعين ولا للأذن تمامًا .

ولم تكن خفته ومرونته كل ما يغطى به هذا العيب ، بل كان يغطيه أيضاً  
بضرب من الفكاهة مسح به على جوانب كثيرة من المقامة عنده . وكانت تسعفه  
في ذلك بديهية حاضرة ونشاط ذهني متقد .

## مقامة الحريري

١

### الحريري

هو أبو محمد القاسم بن عليّ الحريري ، ولد لأسرة عربية سنة ٤٤٦ هـ للهجرة بضاحية من ضواحي البصرة ، تسمى المشان ، كثيرة التمر والرطب والفاكهة . وبها كانت ملاعب صباه ومسارحه . ولما شبّ تحوّل عنها إلى البصرة ، ونزل بجيّ فيها يسمّى حيّ بني حرّام ، وأكبّ على الدراسات الدينية والعلوم اللغوية والنحوية ، وتخرّج في ذلك كله حاذقاً به ، بارعاً غاية البراعة .

وكان فيه ذكاء ولسن وفصاحة وبلاغة ، فجذب إليه الأنظار ، وطمّحت نفسه إلى وظائف الدواة ، وليس تحت أيدينا أخبار كثيرة تفسّر قلبه في هذه الوظائف . وتلك عادة القدماء في تراجمهم الأدباء فقلما أعطونا تفاصيل حياتهم .

ونحن نرى طائفة منهم تذهب إلى أن والي البصرة عنيّ به ، وهو الذي دفعه إلى صنع مقاماته ، وتذهب طائفة ثانية إلى أن الذي عنيّ به أنوشروان ابن خالد وزير الخليفة المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩ هـ) وتزعم طائفة ثالثة أن الذي عنيّ به وزير آخر لنفس الخليفة يسمي ابن صدقة .

وكل ذلك إنما هو تفسير لما جاء في مقدمته للمقامات من قوله : « فأشار من إشارته حُكم ، وطاعته غُنم ، إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع » ، فقالوا إنه يشير إلى أحد الثلاثة السابقين ، واختلفوا فيهم :

غير أن من يرجع إلى تاريخ تأليف الحريري لمقاماته يراه قد أتمها سنة ٥٠٤ للهجرة ، ومعنى ذلك أن ما يقال من صلة ابن صدقة وأنشروان بتأليفها غير صحيح ، فأنشروان إنما ولي وزارة المسترشد بعد وفاة الحريري ، أما ابن صدقة فوليها وهو حتى سنة ٥١٢ ولكن بعد تأليفه لمقاماته بسنوات ثمان .

من أجل ذلك كنا نذهب إلى ما رواه الشريشي ، شارح مقاماته الكبير ، في تعليقه على العبارة السابقة إذ روى عن بعض أساتذته أن الذي أشار إليه الحريري في مقدمته هو الخليفة المستظهر (٤٨٧ - ٥١٢ هـ) وكان له حظ من الأدب وعناية بأهل العلم ، ويقال إنه أثبت في الديوان منهم أسماء ألف وخمسمائة شخص ، وأجرى عليهم الأموال والأرزاق .

فقصده الحريري ، وما زال يبعثه على صنع المقامات ، حتى أتمها ورفعها إليه ، فبلغ عنده أسنى المراتب ، ويظهر أنه ظل بالقرب منه في بغداد حتى توفّي ، وخلفه المسترشد ، فاتصل بكبار رجال الدولة لعهد ، ومن هنا تأتي صلته بابن صدقة وزيره . وربما اتصل بأنشروان حينئذ كما اتصل بغيره من البارزين وقدّم لهم نسخاً من مقاماته ، فأشكل ذلك على من تحدثوا عن حياته وأخباره . وأكبر الظن أنه زهد في بغداد بعد وفاة سيده المستظهر ، فرجع إلى بلده ، وعيّن صاحب الخبر بها ، وهي وظيفة تشبه وظيفة « مصلحة الاستعلامات » في عصرنا . واكتفى بهذه الوظيفة ، وذهب يُعنى بمقاماته ومحاضراته ، فكانت له حلقة بمسجد حسيه الذي كان ينزل فيه هناك . وكان أحياناً يترك البصرة ويذهب إلى المشان ، فيتبعه الطلاب .

ويقول الرواة إنه كان بخيلاً قبيحاً دميم الحلقة والهيئة مُبْتَكَلِي بِنْتَسَفٍ لحيته ، ويزعمون أن رجلاً طلبه ، ليقراً عليه مقاماته ، وسأل عن مسجده الذي يقرؤها فيه ، فدلّه الناس عليه ، فلما رآه بهت ، وقال في نفسه : لعله ليس هو هذا ، فرجع ، ثم قال في نفسه : لعله هو ، ثم استبعد أن يكون الحريري هذا الشخص الدميم الذي تفتححه العيون . وكل ذلك وهو يلحظه .

وهمَّ الرجل بالجلوس بين يديه ، فبادره بقوله : ارحل فأنا من تطلب أكبر من قرد محنك . ويزعم الرواة أيضاً أن رجلاً آخر حدث منه ذلك والحريرى يراقبه ، فلما التمس منه أن يعلى عليه شيئاً من مقاماته قال له : اكتب :  
 ما أنت أول سارٍ غرَّه القَمَرُ وزائرٍ أعجبتَه خضرة الدِّمِّ منِ  
 فاخترَ لنفسك غيرى إننى رجلٌ مثلُ المعيدى فاسمع بي ولا تررنى  
 فمخجل الرجل منه ، وانصرف .

ومهما يكن فقد دوت شهرته في العالم الإسلامى ، وهو لا يزال حياً ، ويقال إنه أعطى إجازة لسبعمائة طالب أن يرووا مقاماته عنه في الناس . وهو عدد ضخم يدل على مبلغ عناية معاصريه بعجله ، ومدى ما تمتع به من مكانة أدبية مرموقة في عصره .

وخلّف الحريرى بجانب المقامات ديواناً من الشعر ومجموعة من الرسائل كما خلّف كتباً في النحو واللغة ، من أشهرها كتاب « درة الغواص في أوهام الخواص » وهو مطبوع ، وفيه يتعرض لأخطاء الأدباء وأغلاطهم في استعمال الألفاظ والأساليب ، وسنرى في مقاماته ما يدل دلالة بينة على أنه كان واسع المعرفة بالمواد اللغوية .

وما زال يذيع هذه الأعمال من جهة ، وقائماً على وظيفة « صاحب الخبر » من جهة ثانية ، حتى توفي سنة ٥١٦ للهجرة . ولنا ندرى أحجّ أم لم يحج ؟ ويغلب على ظننا أنه أدّى فريضة ربه ، ففي مقاماته نزعة دينية وخلقية تدل على أنه كان حقيقياً بدينه ، مرضياً في سلوكه وخلقه .

وكان دائماً موسّعاً عليه في الرزق ، ويقول الرواة إنه كان له ضياع واسعة في المشتان ، ولعله من أجل ذلك كان كثير النزول بها والإقامة فيها . وعلى نحو ما كان سعيداً في نفسه كان سعيداً بأبنائه الثلاثة ، وهم : عبید الله وأبو القاسم عبد الله وأبو العباس محمد . أما أولهم فكان قاضى البصرة ، وأما الثانى فكان موظفاً في ديوان بغداد ، وأما الثالث فورث وظيفة أبيه ، وزار

العماد الأصفهاني البصرة سنة ٥٥٦ للهجرة ، ورأى أبناءه لا يزالون يقومون على الوظيفة نفسها . وكان الطلاب بعد وفاة الحريري يقصدون أبناءه الثلاثة المذكورين ، ويأخذون عنهم مقامات أبيهم ، وكانوا يشرحون لهم صعوباتها اللغوية . واشتهر من بينهم في ذلك محمد ، فهو مبدأ السلسلة الطويلة من شراحها الذين نهضوا بتفسيرها وحل مشكلاتها ، من مثل الشريشي وغيره .

## ٢

## تأليف الحريري لمقامته

يختلف الرواة في المكان الذي أُلّف فيه الحريري مقامته ، فمن قائل إنه ألفها ببغداد ، ومن قائل إنه ألفها بالبصرة ، ثم أصدع إلى بغداد ، وعرضها على الأدباء هناك ، وكانت أربعين مقامة ، فاستحسنوها وتداولوها ، واتهمه بعض حسدته بأنها ليست من عمله ، وقالوا له : إن كنت صادقاً في أنها من عملك ، فلتصنع مقامة جديدة ، تثبت حججتك وصحة قولك .

وتزعم القصة أن الحريري حاول ذلك أربعين يوماً ، فلم يفتح الله عليه بشيء ، فعاد إلى البصرة كئيباً أسفياً ، والناس يتحدثون عنه ، ويقعون فيه ، وغاب بها حقبة من الزمن ، ثم رجع ، وقد صنع عشر مقامات جديدة ، فحينئذ سلموا له واعترفوا بفضله .

وفي رأينا أن هذا كله قصصٌ لا صلة له بالواقع ، لسبب بسيط ، وهو أن نظام تأليف المقامات عند الحريري يدل - كما سنرى بعد قليل - أنه ألفها جملة واحدة ، ولم يقع في ذهنه أن يؤلفها أربعين مقامة ، ثم عاد فألحق بها عشرًا ، بل الذي حاوله منذ أول الأمر أن يجعلها خمسين معارضة لمقامات بديع الزمان الخمسين .

ونظن ظناً أنه ألفها في بغداد حين أظلمت عناية المستظهر كما قدمنا ، وقد اختار لها بطلا هو أبو زيد السَّروجيِّ وراوية هو الحارث بن همام . واتفق الرواة على أن الحارث شخصية خيالية ، أما أبو زيد فقالوا إنه شخصية حقيقية ، ونسبوا إلى الحريريِّ أنه قال :

« كان أبو زيد السَّروجيِّ شيخاً شحاذاً بليغاً ومُكدياً فصيحاً ، وردَ علينا البصرة ، فوقف يوماً في مسجد بني حرام فسلمَّ ، ثم سأل الناس ، وكان بعض الولاة حاضراً ، والمسجد غاصُّ بالفضلاء فأعجبهم فصاحته وحسن صياغته كلامه وملاحظته . وذكرَ أسر الروم ولده كما ذكرناه في المقامة الحرامية وهي الثامنة والأربعون ( بين المقامات الحسين ) . واجتمع عندي عشية ذلك اليوم جماعة من فضلاء البصرة وعلمائها ، فحكيتُ لهم ما شاهدت من ذلك السائل ، وسمعت من لطافة عبارته في تحصيل مراده ، وظرافة إشارته في تسهيل إيرادها ، فحكى كل واحد من جلسائه أنه شاهد من هذا السائل في مسجده مثل ما شاهدت ، وأنه سمع منه في معنى آخر فصلاً أحسن مما سمعت . وكان يُغيَّر في كل مسجد زيَّه وشكله ، ويُظْهر في فنون الحيلة فضله ، فتعجبوا من جريانه في ميدانه ، وتصرفه في تلونه وإحسانه ، فأنشأت المقامة الحرامية ، ثم بنيت عليها سائر المقامات ، وكانت أول شيء صنعته » .

وتأخذ هذه الرواية أو يأخذ هذا الخبر صوراً أخرى مختلفة كلها تحاول أن تثبت أن أبا زيد شخص حقيقي . ويزعم بعض الرواة أنه كان يسمى المطهر ابن سلا ، وأنه كان نحويّاً بليغاً . ولا نلت أن نجد الكتب الخاصة بتراجم النحاة ترجم للمطهر . وتقول إنه صاحب أبي القاسم الحريريِّ الذي أنشأ المقامات على لسانه ، وإنه كان فيه أدب وله معرفة باللغة والنحو ، وإنه قرأ على الحريريِّ وتخرَّج به ، وروى عنه أرجوزته « مُلحة الإعراب » وأنه توفي ببغداد حول سنة ٥٤٠ للهجرة .

وإذن فنحن إزاء مسألة من مسائل الدَّور ، فالحريريِّ روى المقامات عن

أبي زيد ، وأبو زيد روى عنه بعض كتبه ، فهو أستاذ الحريري من طرف ، والحريري أستاذه من طرف آخر ! وقد يكون المطهر شخصية حقيقية وأنه أحد تلامذة الحريري كما تقول كتب النحاة ، أما أنه أبو زيد السروجي فهذا هو الوهم الذي وقعوا فيه .

وليس هذا كل ما أخطئوه ، فقد أخطئوا أيضاً حين ظنوا أن أبا زيد شخص حقيقي ، وبالغوا فأضافوا ذلك إلى الحريري . وهو برآء مما يقولون ، إذ ليس أبو زيد عنده إلا كأبي الفتح عند البديع ، فهو من وهمه وعمل تخيلته ، ابتدعه ابتداءً ليدير عليه مقاماته .

والخبر السابق الذي روه عن الحريري ليس إلا تلفيقاً استمدوه من المقامة الحرامية ، وفيها نجد الحريري يعرض علينا أبا زيد شيخاً يستجدي الناس ببلاغته ، وقد ورد على البصرة ، ووقف في مسجد بني حرام وشكا حاله ، وألقى قصيدة بليغة في الحاضرين ، يقول فيها :

أنا من ساكني سرور	ج ذوى الدين والهدى
كنتُ ذا ثروة بها	ومطاعاً مسوداً
مربعى مألّف الضيو	ف ومالى لهم سدى
ويرانى المؤمّسلو	ن ملاذاً ومقصدًا
ففضى الله أن يغيب	ر ما كان عوداً
بوا الروم أرضنا	بعد ضغن تولدًا
فتطوّحتُ في البلا	د طريداً مُشردًا
أجتدى الناس بعدما	كنتُ من نبيل مجتدى

ثم يقص على الناس أن ابنته سُبَيْب ، ثم يطلب إليهم العون ، فكلُّ يبادر إلى إعطائه . وهي مغامرة كبقية مغامرات أبي زيد في المقامات ، ولكن الرواة من ذوى الخيال المحدود ظنوا ذلك حقيقة ، ولفّقوا الخبر السابق .

وإن من يقرأ مقامات الحريري كلها ويتعقبه فيها يعرف أنه ألفها جميعاً

عملاً واحداً . وحقاً لا يبدو الربط واضحاً بين مقامة وتاليتها ، فقد كانت وجهة الحريري كوجهة بديع الزمان ، ونقصد العناية باللفظ لا بالمعنى ، فكلاهما لم يكن يعنيه من بطله ومغامراته سوى عرض صور من الأساليب البليغة .

غير أننا إذا فحصنا مقامات الحريري وجدناه يرتبها ويرقمها ، فتلك المقامة الأولى ، وتلك المقامة الخمسون وكل مقامة بينهما تأخذ رقمها الخاص . وهذا معناه البناء المحكم ذو الحلقات . ونراه في الحلقة الأولى أو المقامة الأولى ، وهي المقامة الصنعانية ، يقوم بالتعريف بين الحارث بن همام وأبي زيد ، فالحارث قد اغترب إلى صنعاء وهناك رأى شخصاً يعظ في حلقة ، وهو ناحل ، عليه ثياب السفر ، قد أوتى حظاً من البلاغة ، فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه ، فأعجب به ، وحاول التعرف عليه ، فتبعه متوارياً عنه ، حتى دخل متغارة ، وهناك رآه مع تلميذ له ، فسأله عنه ، فقال : « هذا أبو زيد السروجي ، سراج الغرباء ، وتاج الأدباء » .

وعلى هذا النحو يعرف الحريري راويته ببطله في أول مقاماته ، ثم ينتقل به أديباً مستجدياً في المقامات التالية ، لا يلم ببلدة حتى يتركها إلى أخرى ، وكلها من بلاد العالم الإسلامي ، وهي بلاد متباعدة . وفي كل بلدة يقوم البطل بجيلة على من حوله من الناس أو الحكام والقضاة ، وفي كل مرة يعرفه الحارث بعينه ، ويكشف أمره وسره .

ويطرفنا الحريري دائماً بالصورة التي يعتمى بها حقيقة أديبه الشحماد ، فهو دائماً يظهره في قالب جديد تارة في هيئة مزرية ، وتارة في هيئة حسنة ورواء . وتارة يكون وحده ، وتارة مع ابنه أو تابعه أو زوجته . وكثيراً ما نراه يَحْتال على الولاة والقضاة بدعاوى مزيفة على بعض أسرته منتقلاً من صيد إلى صيد ، حاملاً لجرابه ، ومنكراً لشخصه . وقد يلبس لبس الرهبان أو لبس النسوان ، وأكثر ما يكون في ثياب خلقة وأسمال . وما يزال يمد مكايده مكره وأحابيل خستله .

وكل مقامة من الأولى إلى الثامنة والأربعين هي شَرَك صغير من أشراك  
أبي زيد يقصه الحارث ويروى ما انزلق على لسانه فيه من أفانين كلامه . ونراه  
يعرضه علينا في المقامة التاسعة والأربعين ، وهي المقامة الساسانية وقد بلغ من  
الكِبَر عِتِيًّا ، فأحضر ابنه ، وأوصاه أن يقوم على حرفة الكُدْيَة من بعده ،  
وبما قال له :

« يا بُنَيَّ إنه قد دَنَا ارتحالي من الفناء<sup>(١)</sup> ، واكتحالي بِمِرْوَدِ الفَسَاءِ ،  
وأنت بحمد الله وليُّ عهدى ، وكَبَشُ الكِتْيَةِ الساسانية من بعدى ، ومثلك  
لا تُقَرِّعُ له العصا<sup>(٢)</sup> ، ولا يُنَبِّهَ بطمرقِ الحَصَا ، ولكن قد نُدِب<sup>(٣)</sup> إلى  
الإذكار ، وجُعِلَ صيقلا للأفكار . . . فاحفظ وصيَّتِي ، وجانبُ معصيتِي ،  
واحذُ مثالي ، وافقهُ أمثالي ، فإنك إن استرشدت بنصحِي ، واستصبحت  
بصُبْحِي ، أمرَعُ خانك<sup>(٤)</sup> ، وارتفع دخانك . . . يا بُنَيَّ إني جرَّيت حقائق  
الأمر ، وبكَلَوْتُ تصاريف الدهور ، فرأيتُ المرءَ بنسبِهِ لا بنسبِهِ ، والفحص  
عن مكسبه لا عن حسبه . وكنت سمعت أن المعاييش إمارة وتجارة وزراعة  
وصناعة ، فارستُ هذه الأربع ، لأنظر أيها أوفق وأنفع ، فما أحمدتُ منها  
معيشة ، ولا استرغدتُ فيها عيشة . »

واستمر يتحدث عن هذه الأوجه الأربعة للمعايش ، فقال عن الإمارة  
إنها كأضغاث الأحلام لا تلبث أن تزول عن صاحبها مع مرارة الفطام ، أما  
التجارة فَعُرْضَةٌ للمخاطرات وما أشبهها بالطيور الطيَّارات . وأما الزراعة فذلَّةٌ  
ومسْنَهَكَةٌ ، وقيود عاتمة ، وأما الصناعة فكثيراً ما تكسُدُ ولا تنفُتُ ، وإذن

(١) الفناء : ردهة المنزل .

(٢) في المثل : لا يقرع له العصا ، ولا يقلقل له الحصى ، كناية عن حنكته وتجربته .

(٣) ندب إلى : استحسن .

(٤) الخان : الفندق ، وأمرع خانك : أى بيتك . وهى كناية عن يسار الحال ، ومثل هذه

العبارة : ارتفع دخانك : أى كثر خيرك .

فليس إلا حرفة الكُمدية ، فهي المتجر الذي لا يكسد ولا يبور ، والمصباح الدائم النور . ثم أخذ أبو زيد يَسْرُدُ لابنه كيف يقتطف ثمارها ويعيش عن طريقها ، عارضاً لفنونها وأحابيل كيدها وشباك مكرها .

وواضح أن الحريري يُعِدُّنا بهذه المقامة للإشراف على نهاية عمله وخاتمة تأليفه ، فقد تنقل ببطله في البلدان الإسلامية المختلفة ، حتى أشرف به على الأيام الأخيرة من عمره ، فجعله يودع حرفته ، ويحضر ابنه ليتلقى عنه وصيته ، ويلقى له فيها بخبرته وتجربته .

ونقرأ في المقامة الحصين فإذا الحريري يعرض علينا أبا زيد ، وهو يتوب إلى الله من صنعه ، ويندم على ما تقدم من ذنوبه فيها ، فهو الذي يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ، وينشد :

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ ذُنُوبٍ	أَفْرَطْتُ فِيهِنَّ وَعَاطَدْتُ
كَمْ خَضْتُ بِبَحْرِ الضَّلَالِ جَهْلًا	وَرُحْتُ فِي الْعَمَى وَاعْتَدْتُ
وَكَمْ تَنَاهَيْتُ فِي التَّخَطُّبِ	إِلَى الْخَطَايَا وَمَا انْتَهَيْتُ
فَلَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ هَذَا	نِسِيًّا وَلَمْ أُجِنِّ مَا جَنَيْتُ
يَا رَبِّ عَفْوًا فَأَنْتَ أَهْسَلُ	لِلْعَقْوِ عَنِّي وَإِنْ عَصَيْتُ

ويعان هذه التوبة الصادقة إلى صديقه الحارث بن همام ، ويغيب عنه ، فلا يعود يراه ، ولا يزال يتنسم أخباره ، حتى يعرف أنه رجع إلى بلده سروج بعد أن فارقها الروم ، ولبس الصوف وأمَّ الصوف ، وصار بها الزاهد الموصوف ؛ وبذلك لم يعد ذا المقامات ، فقد أصبح ذا الكرامات . ويرحل إليه ، فيجلده قد انتصب في محرابه ، وأقبل على ذكر ربه وتسيحه . وسلَّم عليه ؛ فحيَّاه دون أن يذكر شيئاً من قديمه ، فقد مضى في قُنُوتٍ وخبثوع وسجود وركوع . وصحبه إلى بيته وأسهمه في طعامه ، وهو طعام زاهد فقير . حتى إذا أضاعت تباشير الصباح أقبل على صلاته ومناجاة ربه ، حتى ليبيكى ؛ ويبكى معه الحارث . ويمضى إلى مسجده هائماً بربه ، فيعرف الحارث أنه أصبح من المتصوفة الذين

أخلصوا وجوههم ونفوسهم إلى ربهم . فيرحل عنه ، وهو يقول له : هذا فراق بيني وبينك . وكانت هذه خاتمة التلاقي .

وبذلك تنتهى المقامات ، وقد أهمل الحريري لنهايتها خير تأهيل كما افتتحها خير افتتاح ، فهو في أولها يعرف البطل براويته ، وهو في خاتمتها يفرق بينهما . وهو يعدُّ للخاتمة بالمقامة الساسانية كما أسلفنا . وكل ذلك دليل بيّن على أن الحريري صنع مقاماته بشكل بناء متكامل ، له أول واضح وله آخر واضح . ونراه يقدم لهذا البناء بمقدمة يذكر فيها أنه أقدم عليه محتدياً على عمل البديع ؛ فإن عظيماً وهو المستظهر ، طلب إليه أن ينشئ مقامات يصوغها على مثال مقامته . ونراه يتواضع إذ يقول إنه طلب منه أن يُقبله من هذا العمل الصعب ، فلما لم يسعفه بالإقالة لبى دعوته تلبية المطيع . يقول : « وبذلت في مطاوعته جهد المستطيع ، وأنشأت — على ما أعانيه من قريحة جامدة ، وفطنة خامدة ، وروية ناضبة ، وهموم ناضبة — خمسين مقامة » .

وهذا تواضع جميل منه ، وقد كرره في آخرها ، إذ ذهب يقول : « إنها من سَقَط المتاع ، وهما يستوجب أن يباع ولا يبتاع ، ولو غَشِيَنِي نور التوفيق ، ونظرت لنفسي نظر الشفيق ، استترت عَوَارِي الذي لم يزل مستوراً ؛ ولكن كان ذلك في الكتاب مسطوراً ، وأنا أستغفر الله تعالى مما أودعتها من أباطيل اللغو ، وأضاليل اللهو ؛ وأسترشده إلى ما يعصم من السهو ، ويُحِطِّي بالعفو ، إنه هو أهل التقوى وأهل المغفرة ، وولى الخيرات في الدنيا والآخرة » .

على أنه ينبغي أن نعرف أن هذا التواضع الذى افتتح به مقاماته واختتمها لم يكن صادقاً فيه كل الصلح ، فقد كان مؤمناً بعمله ، وقد أجرى على لسان أبى زيد شهادات مختلفة تؤكد تفوقه وإحسانه ، فن حين إلى حين نراه يتحدث عن روعة كلامه وبلاغته ، حتى ليقول في المقامة السابعة والأربعين :

إن يكن الإسكندرى قبلى فالطلُّ قد يبدو أمام الوابل

والفضل للوابل لا للطل

فهو يقدم أبا زيد على أبي الفتح الإسكندري ، وبالحرى أنه يقدم نفسه على بديع الزمان . وقد أكثر الحارث بن همام من وصف افتنان أبي زيد ومقدرته على حوك الكلام ، مع البلاغة الرائعة والبديهة المطاوعة والغوص في لُجج البيان . وليس الحارث وحده هو الذى تبهره فصاحته ، فالولاء والحكام والقضاة والناس جميعاً يُفْتَسُون ببراعة عبارته ومُلَح استعارته ، وما ينظم وينثر من دُرره مما يخلب العقول ، ويسحر القلوب .

## ٣

## الموضوع

تدور مقامة الحريرى على الكُدبية والاستجداء، وهو من هذه الناحية أدق من بديع الزمان؛ فقد رأينا المقامة عنده إنما تدور على الكدبية غالباً، وأنه أشرك معها موضوعات أخرى ، فلم يقف بها عند الموضوع الأساسى . أما الحريرى فسلكتها جميعاً في قالب الشحاذة ، وعرض أبا زيد فيها دائماً أديباً شحاذاً . غير أن هذه الحبكة الظاهرة ينبغى أن لا تغرنا ، وأن لا نطلق عن طريقها أحكامنا فإن الحريرى اتخذ الكدبية شكلاً ظاهراً لمقامته ، وإذا أنعمنا النظر فيها وجدناه يعالج بها موضوعات مختلفة ، منها ما يشترك فيه مع البديع ، ومنها ما ينفرد به .

أما ما يشترك فيه معه فهو الوعظ ، وإذا كنا قد لاحظنا أن بديع الزمان عرض أبا الفتح الإسكندري وأعظاً في مقامتين فإن الحريرى عرض أبا زيد وأعظاً في عشر مقامات ، بل قد تزيد ، ومنذ المقامة الأولى نجد هذه النزعة بارزة عنده ، وفيها يقول :

« أيها السَّادِرُ في غُلَّوائه ، السادلُ ثوبَ خَيْمَلائِه ، الجانحُ في جهالاتِه ،  
الجانحُ إلى خَزَعِبَلاتِه ، الإلامُ تستمر على غَيْبِكَ ، وتَسْتَمِرُّ مَرَعِي  
بَعْيِكَ ، وحتامُ تنهاى في زهوكِ ، ولا تنتهى عن هوكِ ، تبارزُ بمعصيتك ،  
مالِكُ ناصِبَتِكَ ، وتجرى بقبج سيرتك ، على عالمِ سريرتك ، وتتوارى عن

قريبك ، وأنت بمرأى رقيبك ، وتستخفى من مملوكك ، وما تخفى خافية\*  
على ملكك ، أتظن أن ستفعلك حالك ، إذا آن ارتحالك ، أو ينقذك  
مالك ، حين توبيقك أعمالك ، أو أن يغنى عنك ندمك ، إذا زلت قدمك ،  
أو يعطف عليك معشرك ، يوم يضمك محشرك ؟ . . . »

ويستمر في هذا الوعظ لا في هذه المقامة وحدها ، بل أيضاً في المقامة  
الثانية ، والحادية عشرة ، والواحدة والعشرين ، والخامسة والعشرين ، والواحدة  
والثلاثين ، والثالثة والثلاثين ، والواحدة والأربعين ، والثامنة والأربعين ، والخمسين .  
ففي هذه المقامات جميعاً وفي قطع صغيرة من مقامات أخرى يخصُّ على الهدى  
ويحث على العمل الصالح ، ويؤزري على الدنيا ومن يغرمون بها ، ويذكر  
ثواب الآخرة وما ينتظر الناس . ولعل من أطرف ما صنعه في هذا الجانب أن  
نجده في المقامة الثانية عشرة الدمشقية يقدم لنا أبا زيد خفياً لقافلة ، وزاه  
يخفها لا بعينه ، بل بدعوات طبيبات تطرد على هذا النسق :

« اللهم يا مُجَيِّ الرُّفَات ، ويا دافع الآفات ، ويا وافي الخافات ، ويا كريم  
المكافاة ، ويا مَوْتِئِل العُفَاة<sup>(١)</sup> ، ويا ولىَّ العفو والمعافة ، صلِّ على محمد خاتم  
أنبيائك ، ومبلغ أنبثائك ؛ وعلى مصابيح أسرته ، ومفاتيح نُصْرته ، وأعدني  
من نزغات الشياطين ، ونزوات السلاطين ، وإعنات الباغين ، ومعاناة الطاغين ،  
ومعاداة العادين<sup>(٢)</sup> ، وعدوان المعادين ، وغلب الغالين ، وسلب السالين ،  
وحيل المحتالين ، وغيب<sup>(٣)</sup> المغتالين ، وأجِرني اللهم من جَوْرِ المجاورين<sup>(٤)</sup> ،  
ومجاورة الجائرين ، وكُفِّ عني أكُفَّ الضَّامنين ، وأخرجني من ظلمات  
الظالمين ، وأدْخِلني برحمتك في عبادك الصالحين ، اللهم حُطِّني في تربتي<sup>(٥)</sup> ،  
وغُرِّبني ، وغَيِّبني ، وأوتني ، ونُجِّعني<sup>(٥)</sup> ورجعني ، ونصرتني ،

(١) العفاة : طلاب الحاجات . (٢) العادين : الظالمين . (٣) غيب : جمع

غيلة . (٤) المجاورين : الجن . (٥) تربتي : وطني . (٦) نجعتي : من

الفعل ينتجع أى يطلب المعروف .

وَمُنْصَرَفِي ، وَتَقَلُّبِي ، وَمُنْقَلَبِي ، وَاحْفَظْنِي فِي نَفْسِي ، وَفَنَائِسِي ،  
وَعِرْضِي ، وَعَرَضِي (١) وَعَدَدِي وَعُدَدِي . . . وَلَا تَلْحَقْ بِي تَغْيِيرًا ،  
وَلَا تَسَلِّطْ عَلَيَّ مُغْيِرًا ، وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا . . . »

وَيَخِيفُ الْحَرِيرِيَّ عَلَى النَّفْسِ فِي هَذِهِ الْمَقَامَاتِ الَّتِي تَنْحُو نَحْوَ الْوَعْظِ  
أَوْ الدِّعَاءِ بِخُفَّةِ أَسْلُوبِهِ وَرَشَاقَةِ عِبَارَاتِهِ . فَإِذَا عَرَفْنَا أَنَّ النَّاسَ فِي عَصْرِهِ كَانُوا  
يُولَوْنَ وَجُوهَهُمْ نَحْوَ الدِّينِ يَرْجُونَ مِنْ رَبِّهِمْ أَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ أَنْفُسِهِمْ  
وِظُلُمَاتِ وَلَاتِهِمْ وَفَسَادِ مُلْكِهِمْ وَحُكْمِهِمْ ، وَأَنْ يَعِينَهُمْ فِي حَرْبِهِمْ ضِدَّ الصَّلِيبِيِّينَ  
مِمَّا دَفَعَهُمْ دَفْعًا ، أَوْ قَلَّ دَفْعٌ كَثِيرًا مِنْهُمْ إِلَى التَّصَوُّفِ ، وَأَنْ يُطَلِّبُوا مَا عِنْدَ اللَّهِ  
وَيَتْرَكُوا مَا عِنْدَ النَّاسِ . إِذَا عَرَفْنَا ذَلِكَ اسْتَطَعْنَا أَنْ نَقْدِرَ هَذِهِ الْمَوَاعِظَ وَالْأَدْعِيَةَ  
الْحَرِيرِيَّةَ حَقَّ قَدْرِهَا ، وَأَنْ نَدْرِكَ مَدَى تَأْثِيرِهَا بِهَا فِي الْأَدْبَاءِ وَالطَّلَابِ مِنْ حَوْلِهِ .  
وَشَغِيفُ الْحَرِيرِيِّ بِمَوْضُوعِ ثَانٍ لَا يَتَّصِلُ هَذِهِ الْمَرَّةَ بِالْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَإِنَّمَا  
يَتَّصِلُ بِالْحَيَاةِ الْأَدْبِيَّةِ فَقَدْ تَحَقَّقَتْ هَذِهِ الْحَيَاةُ ، وَأَخَذَ أَصْحَابُهَا يُعْنُونَ بِالْعُقْدِ  
الْبَلَاغِيَّةِ . فَلَيْسَتْ الْبَلَاغَةُ الرَّائِعَةُ هِيَ الْعِبَارَةُ الْمُنْمَقَةُ بِالسَّجْعِ وَالْمُحَلَّلَةُ بِأَلْوَانِ الْبَدِيعِ ،  
فَذَلِكَ أَمْرٌ يَهُونُ ، وَتَسْتَطِيعُ الْأَلْسُنُ كُلُّهَا أَنْ تَصِلَ إِلَيْهِ . وَإِنَّمَا الْبَلَاغَةُ الرَّائِعَةُ  
حَقًّا هِيَ الَّتِي تَتَّبِعُ لِصَاحِبِهَا أَنْ يَنْحَازَ جَمَلَةً عَنِ كُلِّ الطَّرِيقِ الطَّبِيعِيَّةِ فِي الْفَنِّ ،  
وَأَخَذَ الْحَرِيرِيُّ يُثَبِّتُ مَهَارَتَهُ فِي ذَلِكَ ، وَخَصَّ بِهِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَقَامَةً ، أَرَانَا فِيهَا  
أَلْعَابَهُ الْفَنِّيَّةَ ، وَكَأَنَّهَا أَلْعَابُ بَهْلُوَانِيَّةٍ .

وَأَوَّلُ مَا يَلْقَانَا مِنْ هَذِهِ الْأَلْعَابِ الْمَقَامَةُ السَّادِسَةُ ، وَقَدْ حَضَرَ أَبُو زَيْدٍ دِيْوَانَ  
الْمَكَاتِبَاتِ بِبَلَدَةِ الْمَرَاغَةِ ، وَاجْتَمَعَ بِأَرْبَابِ الْبِرَاعَةِ وَالْبَلَاغَةِ ، فَأَرَادَ أَنْ يَرُوعَهُمْ  
وَيُخَلِّبَ أَلْبَابَهُمْ ، فَعَرَضَ عَلَيْهِمْ رِسَالَةَ أَوْدَعَهَا شَرْحَ حَالِهِ . وَلَيْسَ هَذَا هُوَ  
الْمَهْمُ ، إِنَّمَا الْمَهْمُ أَنَّهُ التَّزَمَ فِيهَا أَنْ تَكُونَ حُرُوفُ إِحْدَى كَلِمَتَيْهَا مَنْقُوطَةٌ وَحُرُوفُ  
الثَّانِيَّةِ غَيْرُ مَنْقُوطَةٌ ، عَلَى هَذِهِ الشَّكْلِ : « الْكِرْمُ ثَبَّتَ اللَّهُ جَيْشَ سَعُودِكَ  
يَزِينَ . وَاللُّؤْمُ غَضَّ الدَّهْرُ جَفْنَ حَسُودِكَ يَشِينُ » . . . وَانصَبَ يَتَنَقَّلُ بَيْنَ

تمثل هذه الكلمات مطيلاً ما استطاع حتى بهر سامعيه ، وأوسعوه حفاوة وعطفاً وإكراماً .

وينحرف الحريري عن هذه الطريق الصعبة ، حتى إذا وصل إلى المقامة السادسة عشرة ، وهي المقامة المغربية ، ووقف يعرض لعبة جديدة لا تكاد تخطر ببال ، وهي لُعبة « ما لا يستحيل بالانعكاس » كقولك : ساكب كاس ، فإنه يمكن أن تُقرأ طرداً وعكساً فلا تتغير حروفها ، وعرض علينا أمثلة نثرية منها مثل : لُمَ أَخاً مَلَّ ، كَبَّرَ رَجَاءَ أَجْرَ رَبِكَ . ثم لم يلبث أن نشرها على أسلاك من الشعر ، فقال :

أَسْ (١) أَرْمَلًا إِذَا عَرَا	وَارَعَ إِذَا الْمَرْءُ أَسَا
أَسْنَدُ أَخَا نِبَاهَةَ	أَيْنَ (٢) إِخَاءٌ دَنَسَا
أَسَلُّ جَنَابَ غَاشِمٍ	مَشَاغِبٍ إِنْ جَلَسَا
أَسْرُ (٣) إِذَا هَبَّ مِرًّا (٤)	وَارَمَ بِهِ إِذَا رَسَا
أَسْكُنُ تَقْوًا (٥) فَعَسَى	يُسْعِفُ وَقْتُ نَكَسَا

وما نطق أبو زيد بهذا الشعر حتى سحر السامعين بآياته . وقد لا لعجب نحن الآن بهذه الشعوذة ، ولكنها كانت تعد غاية بعيدة عندهم في الإبداع الفنى ، وكان الحريري يعرض عليهم منها ما يدل على تفوقه وإجادته وأنه يعد من أمهر اللاعبين وأكثرهم تجربة وحُكمة .

ويدخل في هذه اللعبة أن نجد في المقامة السابعة عشرة ، وهي المقامة القهقرية ، يؤلف رسالة تُقرأ كلماتها من آخرها إلى أولها كما تُقرأ من أولها إلى آخرها ، فهي ذات وجهين ، وتُنسج على مِزوالين إن شئت قرأتها كما تُقرأ الصحف والرسائل من اليمين إلى اليسار ، وإن شئت عكستها ، فقرأتها من

(١) أس : أعط . (٢) أين : اقطع . (٣) اسر : لأمر من السرو بمعنى  
 تُشرف والترفع عن مشاركة الناس في الخصومات والجدل . (٤) المرأ : الجدال .  
 (٥) تقو : تتقوى وهو مجزوم في جواب اسكن .

اليسار إلى اليمين . وهي مجموعة من الحكم أخرجها في مائة كلمة على هذا النحو :  
 « الإنسان صنيعه الإحسان » فأنت تستطيع أن تقرأ هذه العبارة « الإحسان صنيعه  
 الإنسان » وهكذا بقية الرسالة ، فهي تقوم على الطرد والعكس في الكلمات  
 لا في الحروف .

ونمضي إلى المقامة السادسة والعشرين ، وهي المقامة الرقطاء ، فنجده قد  
 عدل عن تسميتها ببلد من البلدان إلى هذا الاسم الذي سماها به لأنها تتكون  
 من كلمات راعى فيها أن تتوالى حروفها بالتبادل بين الإعجام والإهمال ،  
 أو بين النقط وعدم النقط ، وهي تجرى على هذا النمط : « أخلاق سيدنا تُحَبِّ ،  
 وبعثوته <sup>(١)</sup> يُلَبِّ <sup>(٢)</sup> ، وقربه تُحَسِّف ، ونأيه تلف ، وخلصته <sup>(٣)</sup> نَسَب ،  
 وقطيعته نَصَب ، وغربه <sup>(٤)</sup> ذَلِق ، وشهبه تألَّق ، وظلّفه <sup>(٥)</sup> زان ، وقويم  
 نهجه بان ، وذهنه قَلَّبَ وجَرَّب ، ونعته شرَّق وغرَّب :

سيدٌ قَلَّبَ سبوقٌ مُبِيرٌ <sup>(٦)</sup>      فَطَنٌ مُغْرِبٌ عَزُوفٌ عِيُوفٌ  
 مخلفٌ متلفٌ أغرُّ فريدٌ      نابهٌ فاضلٌ ذكيٌ أنوفٌ

ويظل طويلا ، ينثر حينًا وينظم حينًا ، معبراً عن قدرته ومهارته في حشد  
 هذا النوع من الكلمات ، وكأنه طبَّاع يصف حروفاً متلاصقة ، فتألف له  
 الألفاظ ، وكأنها صناديق متجاورة .

وكان حريصاً أن يذيع في مقامته هذه اللعبة الدقيقة التي لا يؤتاها في رأيه إلا  
 البارعون في فن النثر والشعر جميعاً ، فقد رجع يستخدمها في المقامة الثامنة  
 والعشرين ، وهي المقامة السمرقندية ، وفيها نرى أبا زيد يرتقي منبر مسجد ،  
 ويخطب في الناس خطبية ، كل كلماتها غير منقوطة ، من مثل قوله : « اعملوا —

( ١ ) العقوة : الفناء . ( ٢ ) يلب : يلزم . ( ٣ ) خلة : صداقة .

( ٤ ) الغرب : السيف ، وذلق : حاد . ( ٥ ) الظلف : العفاف . ( ٦ ) مر :

رحمكم الله - عمل الصلحاء ، واكسحوا لمعادكم كندح الأصحاء ، واردعوا أهواءكم ردع الأعداء ، وأعدوا للرحلة إعداد السعداء ، وادرعوا حبل الورع ، وداووا عليل الطمع . . وادكروا الحمام وسكرة مضرعه ، والرئس<sup>(١)</sup> وهول مطلعه ، واللحد ووحدة مودعه ، والمالك وروعة سؤاله ومطلعه .

وما يزال يتدفق بهذا الفيض العذب ، حتى يحكمها خطبة بديعة ، ولعله كان يفكر أثناءها أن يتفوق على ابن نباتة خطيب سيف الدواة المشهور ، فقد كانت خطبه تروع الناس ، وتناقلها الأدباء والرواة ، فأراد الحريري أن يثبت أنه ليس أقل منه شأنًا في هذا الباب ، بل لقد ذهب يصعب المسالك على نفسه ، فهو لا يخطب على سجيته ، بل يلتزم السجع والبديع ، ولكن ذلك غير كاف في رأيه للدلالة على مهارته البيانية ، وإذن فليشق على نفسه ، وليشترط في خطبته أن تكون من كلمات خاصة في اللغة ، هي الكلمات المهملة الحروف .

على أن مجال القول واسع في خطبة يوم الجمعة ، ومن هنا نراه يفكر في خطبة عسيرة يجرب فيها هذه اللعبة التي راقته ، وأي خطبة أعسر من خطبة الزواج. فإن المتكلم فيها يكون متحرجًا ، ولا يعدو أن يتحدث عن الخاطب ، وأنه كفو لخطيبته ؟ وذلك هو الذي دفعه في المقامة التالية للمقامة السابقة ، وهي المقامة الواسطية ، أن يطلب هذه الخطبة وأن ينشر فيها فنه ، ويذيع بضاعته على هذا النحو :

« الحمد لله الملك المحمود ، المالك الودود ، مصور كل مولود ، ومآل كل مطرود ، ساطع المهاد ، وموطد الأطواد ، ومرسل الأمطار ، ومسهل الأوطار ، عالم الأسرار ومدركها ، ومدمر الأملاك<sup>(٢)</sup> ومهلكها . . طاوع<sup>(٣)</sup> السؤل والأمل ، وأوسع المرمل والأرمل ، أحمدته حمداً ممدوداً مداه . . وهو الله لا إله للأهم سواه ، ولا صاعد<sup>(٤)</sup> لما عدله وسواه ، أرسل محمداً علماً للإسلام ، وإماماً

(١) الرمن : القبر .

(٢) الأملاك : الملوك والدول .

(٣) طاوع : صارف .

(٤) صاعد : أجاب .

للحكام . . اعملوا - رعاكم الله - أصلح الأعمال ، واسلكوا مسالك الحلال ،  
 واطرحوا الحرام ودعوه ، واسمعوا أمر الله وعُوه ، وصلوا الأرحام وراعوها ،  
 وعاصوا الأهواء وادعوها ، وصاهروا لُحَمَّ الصلاح والورع ، وصارموا رَهْطَ  
 اللهو والطمع ، ومُصَاهِرُكُمْ أَطْهَرُ الأحرار مولداً ، وأسراهم<sup>(١)</sup> سُؤْدُداً ،  
 وأحلامهم مورداً ، وأصحهم موعدا . . »

وما يزال يبدي ويعيد في هذا النسج العاقل من النقط . ويظهر أنه لم يقتنع  
 بهذه التجربة وما سبقها ، فعاد في المقامة السادسة والأربعين ، وهي المقامة الحلبية  
 يعرض نماذج جديدة من الشعر ، بعضها منقوط ، وبعضها غير منقوط ، ومن  
 مثال المنقوط قوله :

فَتَنَّتْنِي فَجَنَّتْنِي تَجَنِّي<sup>(٢)</sup> بتجنُّ يفتنُّ غِبَّ تَجَنِّي

وكانه رأى هذه النماذج دون غايته ، فصاغ نموذجاً تتوالى فيه كلمات  
 الأبيات ، وإحداها منقوطة ، والثانية غير منقوطة على هذه الصورة :

اسْمَحْ فَبْتُ السَّاحِ زَيْنٌ وَلَا تُحِبُّ آمَلًا تَضَيَّفُ  
 ولم يكفه هذا النموذج ، فأضاف إليه نموذجاً آخر يقوم على التجنيس  
 الخطي بين الكلمات ، بحيث لو حذفت النقط منها تراءت مماثلة تمام التماثل من  
 مثل قوله :

زُيِّنَتْ زَيْنٌ بَقْدٌ يَقْدُ وتلاه وبلاه نَهْدٌ يَهْدُ

وكان هذا الجناس لم يُبْلَغْه كل أميته ، فذهب ينظم بيتين ، تتجانس  
 فيهما فاتحتهما ونحائمتها إذ يقول :

سِمٌ سِمَةٌ تحسنُ آثارها واشكُرْ لمن أعطى ولو سَمِسِمَةً  
 والمكرُّ مهما اسطعنت لآثاته لتقتنى السؤدُدَ والمكرِّمَه

فهو يضيق على نفسه في اصطناع الجناس إذ يلتزمه في مطلع البيت وفي  
 نهايته . كل ذلك ليدل على تفوقه . ولم يلبث أن أوغل في الغريب ، فأنشد

(٢) تجنى : اسم صاحبه .

(١) أسرام : أشرفهم .

أبياتاً لما يشكل من الكلمات ذوات السين وأخرى لما يجرى على السين والصاد ،  
وتماذى في مسائل لغوية عسيرة .

والحريرىُّ في هذا كله كأنه حاور من الحواة ، فهو يعرض ألعاباً وتمازين  
هندسية غريبة ، أو قل إنه يعرض أفاعى البلاغة بأديهما الملوّن بالنقطة والحناس  
الخطى وغيرهما . ومن هذه الأفاعى وأجملها في نفسه ورأيه أفاعى الأمثال ،  
فقد حشا مقاماته بها ، وتفرّدت بعضها كأنها هي الغاية من تأليفها أو قل  
هي الموضوع على نحو ما يرى القارئ في المقامة التاسعة عشرة والسابعة والعشرين  
والأربعين والسابعة والأربعين . غير أن من الحق أن نقول إن الحريرى لم يَسْمُجْ  
في ذلك كله فقد كان يحميه طبع حاد وإحساس دقيق باللغة ، فيزّ دائماً  
الحبيث من الطيب والحيد من الردىء ، فهما لعب ، ومهما أشكل بتارين في  
مقاماته فإنه لا يثقل . ولعل من خير الأمثلة على ذلك مقامته الثالثة والعشرين ،  
وهي المقامة الشعرية ، وعنوانها يدل على ما أرادها بها من إعلان مقدرته في النظم ،  
وقد فكر وانتهى به تفكيره إلى نظم هذه الأبيات :

يا خاطب الدنيا الدنيّة إنها	شَرَكُ الرَّدَى وقِراةُ الأَكْدارِ
دارٌ متى ما أضحكّت في يومها	أبكت غداً بعداً لها من دارِ
غاراتها ما تنقضى وأسيرها	لا يُفتدّى بجلائل الأخطارِ

واستمر حتى أتم قصيدة طويلة . وليس في ظاهر الأبيات شيء ، ولكن  
إذا أطلنا النظر فيها لاحظنا ما ابتغاه منها ، فإنه التزم في داخلها قافية غير  
القافية الخارجية ، بحيث يمكن أن تشد القصيدة كلها على هذا النمط :

يا خاطب الدنيا الدنيّة	إنها شرك الرّدَى
دارٌ متى ما أضحكّت	في يومها أبكت غداً
غاراتها ما تنقضى	وأسيروها لا يُفتدَى

ومن غير شك هذه المقامات كلها التي تحدثنا عنها إنما أراد بها الحريرىُّ

إلى هذه اللعب الأدبية ، ولذلك زعمنا أنها الموضوع الحقيقي الذي أراده منها فأبو زيد ليس إلا حيلة لعرضها وتصويرها وحبك رسوماً وبيان دقائقها .  
 وشاعت في هذا العصر الألغاز ، يلغز الأدباء بكلمات أو بأوصاف لأشياء ،  
 يمتحنون بها ذكاء السامع ومدى حضور بديهته . ولعل ذلك ما جعل الحريري  
 يختص الألغاز بثلاث مقامات ، هي المقامات السادسة والثلاثون والثانية والأربعون  
 والرابعة والأربعون ، فكلها أُلِّفَت للتجاعي والمطارحة وامتحان الألفية ، في  
 استخراج المعاني الخفية . وقد شرحها الحريري بنفسه إما في متن المقامة ، وإما  
 بمحاشية ألحقها بها مثل قوله :

وقادرين متى ما ساء صنْعُهُمْ<sup>١</sup> أو قصرُوا فيه قالوا الذنبُ للخطب  
 فقد ألغز في قادرين إذ أراد بها الطابخين بالقلمور ، ومن ذلك قوله :

وكاتبين وما نخطتْ أناملُهُمْ<sup>٢</sup> حَرَفًا ولا قرعوا ما خُطَّ في الكتبِ  
 فقد ألغز في كاتبين إذ أراد بها الخرازين . وقد لا تعجبنا هذه الألغاز  
 اليوم ، ولكنها كانت مقياساً للذكاء عندهم ، وكان الكتاب والشعراء يتسابقون  
 في صنعها وإحكامها .

وعلى نحو ما جعل الألغاز موضوعاً لبعض مقاماته جعل النحو والفقهاء أيضاً  
 موضوعين لها ، ولم يتوسع في ذلك ، فقد خصَّ النحو بمقامة واحدة هي المقامة  
 الرابعة والعشرون وهي المقامة القسطيعة ، بسط فيها اثنتي عشرة مسألة نحوية ،  
 أما الفقهاء فأفرد له مقامتين ، هما المقامة الخامسة عشرة المسماة بالفرسية ، تحدث  
 فيها عن مشكلة من مشاكل علم الميراث أو علم الفرائض وأنصبة الورثة ، وأثبت  
 حلها ، ثم المقامة الثانية والثلاثون التي سماها الطيبي نسبة إلى طيبي وهي المدينة ،  
 وقد ضمَّنها مائة مسألة فقهية وأجوبتها مفسراً في أثنائها الكلمات الغريبة .  
 ونحن نعرض على القارئ قطعة منها ليتبين كيف كان يجمع المسائل الفقهية  
 والإجابة عنها جمعاً ويرصُّها رصاً . ويعرض المسائل فقيهاً ويجيبه أبو زيد  
 على هذا النحو .

« أيجوز الوضوء مما يقذفه الثعبان ؟ قال : وهل أنظف منه للعرين ( الثعبان جمع ثعب وهو مسيل الوادى ) قال : أيسْتَباح ماء الضرير<sup>(١)</sup> ؟ قال : نعم ويُجْتَنَب ماء البصير . ( الضرير : حرف الوادى والبصير : الكلب ) ... قال : فما تقول : فيمن تيمّم ثم رأى رَوْضًا ، قال : بطل تيممه فليتوضأ ( الروض : جمع روضة وهى الصُّبابة تبقى فى الحوض ) قال : أَيُصَلَّى على رأس الكلب ؟ قال : نعم كسائر المَهْضَب ( رأس الكلب : ثنية معروفة ) قال : فإن حمل جبرًا وصلّى ، قال : هو كما لو حمل باقِلًا<sup>(٢)</sup> ( الجيرو : الصغار من القنّاء والرمّان ) قال : أيجوز أن يؤمّ الرجالَ مَقْنَع<sup>(٣)</sup> ؟ قال : نعم ويؤمهم مدرّع ( المَقْنَع : لابس المغفر<sup>(٤)</sup> ، والمدرّع : لابس الدرّع ) قال : فإن أمّهم من فى يده وقّف ؟ قال : يعيدون ولو أنهم ألف ( الوقف : السوار من العاج ) . . قال فإن أمّهم الثور الأجمّ ؟ قال : صلّ ونَحْلَاكَ ذمّ . ( الثور : السيد ، والأجم : الذى لا رمح معه ) قال : أيدخل القَصْر<sup>(٥)</sup> فى صلاة الشاهد ؟ قال : لا والغائب<sup>(٦)</sup> الشاهد ( صلاة الشاهد : صلاة المغرب سميت بذلك لإقامتها عند طلوع النجم ، لأن النجم يسمى الشاهد ) . . قال : فهل للمعرّس أن يأكل فى رمضان ؟ قال : نعم بملء فيه ( المعرّس : المسافر الذى ينزل فى آخر ايله ليستريح ، ثم يرتحل ) قال : فإن أفطر فيه العرّاة قال : لا تنكر عليهم الولاة ( العرّاة : الذين تأخذهم العرّواء ، وهى الحُمى برعدة ) قال : فإن أكل الصائم بعد ما أصبح ؟ قال : هو أحوط له وأصلح ( أصبح : استصبح بالمصباح ) : قال : فإن أكل قبل أن تتوارى البيضاء ؟ قال : يلزمه والله القضاء ( البيضاء : من أسماء الشمس ) » .

( ١ ) الضرير : الأعمى ، وليس ذلك المعنى المراد كما هو واضح .

( ٢ ) الباقلاء : النبات المعروف باسم الرجلّة . ( ٣ ) المقنع هنا : من يلبس القنّاع .

( ٤ ) المغفر : رداء ترضه المرأة على وجهها وأصله سلاح الحرب يوقى به الرأس .

( ٥ ) القصر : تقصير الفروض الرباعية بجعلها اثنتين . ( ٦ ) الغائب الشاهد : هو الله

مز وجل لأنه يغيّب عن أبصارنا ويشاهدنا ويطلع علينا .

ويسترسل الحريري في أسئلته وعرض أجوبتها، وواضح أنه يَحْتال في السؤال حيلة لغوية، فيذكر كلمة لها معنى مشهور، ويريد بها معنى لغويًا غير معروف. وبذلك يُطْرَف قارئه، ويوسع معجمه اللغوي. فالمقامة لا يراد بها الفقه فقط، بل يراد بها اللغة أيضًا.

وعلى هذه الشاكلة كان الحريري يعنى في مقاماته باللغة، وحتى هو إن تركها إلى الفقه أو غيره لم يَنْسَمَهَا ولم يهملها، فهو «كأبرة البوصلة» يتجه إليها دائماً. ولعل ذلك ما جعله ينبذ عصره ومجمعه، فليس في مقاماته منهما إلا ظلال خفيفة كأن يذكر دُبَيْسَ الأَسَدِي في المقامة العمانية، وكان أميراً في حِلَّةِ العراق لزمته، أو يذكر ظلم الولاة أو يصور بعض الأسواق أو بعض عاداتهم حينئذ، كاتخاذ العوذ والأحجبة والتأمم، أو يصور بعض من يتظاهرون بالدين ويبطنون لإلحاداً وضلالاً. غير أن هذا كله محدود بحيث إذا قلنا إن مقاماته ليست إلا شباكاً لصور من الكلمات لم نُبْعِدْ، ولم نكن من المغالين.

## ٤

## الأسلوب

وضع الحريري مقامته على أسلوب البديع في مقامته من حيث الحوار المحدود بين الراوي والبطل، ومن حيث هذه الصيغة الثابتة في أول المقامة «حدثنا...». فمقامته تأخذ أسلوب القصة، وهي أكثر حبكة من مقامة البديع، ولكن لا تزال الغاية القصصية بعيدة عن الحريري، إذ لم يحاول فعلاً أن يقدم لنا قصة، وإنما حاول أن يقدم حديثاً فيه ما يشوق عن طريق أبي زيد، هذا الأديب الشعاذ الذي يظهر في مناظر مختلفة وبلدان مختلفة، وهو حديث لا يراد لذاته، وإنما يراد لـعرض أساليب أدبية بديعة.

فالسُّلوب هو غاية الحريرى من مقامته ، وإذن فن الخطأ أن نطلب عنده كيان القصة الحى ، أو مدى تصوره للنفس الإنسانية ، فإنه لم يفكر فى شىء من ذلك ، إنما فكر فى أن يروع معاصريه بما يعرضه من الشكل الخارجى لمقامته ، وقد رأيناه يعتمد إلى منحرفات أدبية يسوق فيها بعض مقاماته ، إذ يعرض بعض الألعاب البلاغية التى كانت تروق عصره من مثل خطبة عاطلة من النقط ، أو قطعة شعرٍ حاليةٍ به ، أو رسالة تقرأ من آخرها إلى أولها أو أبيات من الشعر تجرى على نفس المنوال .

وكل هذا عنده معناه أنه كان يحاول جاهداً أن يلائم بين عصره وبين مقامته فقد رأى الأدباء الذين سبقوه وعلى رأسهم أبو العلام أوغلاوا فى عقد مختلفة ، فلم يخرج عليهم ، بل حاول أن يجاريهم .

ومع ذلك فإنه قصر عقده أو ألعابه على مقامات خاصة ، هى تلك التى عرضنا لها آنفاً ولم يحاول أن يغرق إلى أذنيه فى تلك العقد ، بل اختار منها أشياء خفيفة ، اقتصر فى تطبيقها على طائفة من مقاماته ، وترك بقيتها حرة غير مقيدة بهذه القيود الثقيلة ، ونستطيع أن نعرف مدى تخلصه فى الجملة من هذه الأعباء التى كان يزرع تحتها أدباء عصره ، إذا وازنا بينه وبين أبى العلام فى رسالة الغفران .

فنحن نجد عند الأخير ثقلاً ، ولا نستطيع أن نتقدم دائماً فى قراءته ، بل تقوم أمامنا حواجز اللغة ، إذ عُنِيَ أبو العلام بأن تكون آثاره كأنها متون . وإذا انتقلنا فقرأنا فى كتابه « الفصول والغايات » وجدنا أنفسنا بإزاء غابات ملتفة ، كلها صعوبات وانحرافات عن الطرق الطبيعية فى الكتابة .

وكان الحريرى يرى تعلق معاصريه بمثل هذه الصورة ، فلم يسنفها جملة من عمله ، بل استأثر بها ، ولكن فى بعض جوانب مقامته ، حتى يثبت أنه لا يقل مهارة عن غيره ، بل إنه يتقدم كل معاصريه لو شاء أن يستخلم هذه الألعاب السحرية ، حتى الألغاز حاول أن يؤلف منها بعض مقامات ليرى

الأدباء أنه يستطيع ، أن يصبَّ في جميع القوالب ، وأن ينحت ما يشاء من تماثيل .

ثم تعود إليه نفسه أو تعود إليه طبيعته ، فإذا هو ينفر من تلك اللعب والتأرين ويعود إلى بديهته المطاوعة ، فيَرْضِي عِنايتها ، ويسوق أسلوباً متحرراً من هذه الأتقال . ونقرأ فإذا بنا نقع على أجمل ما استطاع العرب في عصورهم الوسطى أن ينسجوه من صياغات بديعة .

وهي صياغات تقوم على السجع والتشديد في استخدامه ، إذ كان الأسلوب العام للكتابة ، ولكنه يأخذ منازل ، تارة تضاف إليه تعقيدات ، تارة يخلو منها جملة . وتارة ثلاثة ينزل منزلة وسطى بين الطرفين .

وخضع الحريريّ في سجعه لألوان البديع ، وللجناس خاصة ، ولكن لم يثقل عنده . فقد كان يعرف كيف يسر النفس ويشرح الصدر ، وكان لديه من الذكاء والإحساس بألفاظ اللغة ما جعله ينفي عن عمله كل غضاضة وكل ضيق ، فما تقرأه حتى تشعر أنك ارتبطت به ، وأنه عقد بينك وبينه رابطة مودة ، لا لسبب إلا لأنه كان يعرف كيف يختار ألفاظه ، وكيف ينتخبها ، بحيث تلتئم مجموعاتها على نحو ما تلتئم الأنغام الصادرة عن آلات موسيقية مختلفة . ومقامة الحريريّ في الحقيقة تتفوق من هذه الناحية على كل ما خلفته لنا العصور الوسطى ، فقد انتهى صاحبها من حيث جمال اللفظ إلى القمة ، ووقف الأدباء والنقاد أمامه مشدوهين ، إذ وجدوا في أسلوبه حيوية نافذة .

ومردّ هذه الحيوية إلى هذا الثوب المتوهج من السجع ، الذي لا نجد فيه نقصاً ، فقد فصله وقطّعه وشأه ذوق رفيع ، كان يعرف كيف يضع الكلمة بجوار الكلمة ، وكيف يشد اللفظة إلى أختها وكأنه عازف قيثارة .

وقد قالوا إنه أمضى تسع سنوات من سنة ٤٩٥ هـ إلى سنة ٥٠٤ هـ يؤلف هذا العمل الفريد ، وهي ليست مدة كبيرة بجانب ما أودعه من إحسان وإبداع . وما أذاعه حتى تدافع عليه الطلاب من العالم الإسلامي . وتزاحموا ببابه على نحو

ما يتزاحم في عصرنا الناس على أبواب دور الحياة عند ظهور الممثلين الممتازين بأشخصاتهم .

ومع ما يقوله في مقدمته من أنه وشحه بالآيات ومحاسن الكنايات ورصّعه بالأمثال العربية واللطائف الأدبية والأحاجي النحوية والفتاوى اللغوية والرسائل المبتكرة والخطب المحبّرة . مع ذلك كله لم تتصعّب الكتابة عنده ، ولم تتحول إلى ما يشبه السرايب المظلمة ، بل ظل لها رشاقة وخفة هي خفة أديب ، عشق مهنته ، واطلع على أسرارها ، وأذاعها في هذا الأسلوب الأخاذ ، الذي استعان في صوغه بسرعة خاطره .

ونحن لا نلاحظ هذه السرعة وحدها في تدفق الألفاظ عليه ، يختار منها أجودها ، وأحكمها ، وأدقها وأضبطها ، بل نلاحظها في شيء مهم هو تفتح ذهنه بالفكاهة ، حتى لا نبالغ إذا قلنا إنه طبع أسلوب مقامته بروح فكاهي ، وهو روح يسود في جوانب مختلفة في مقاماته ، وخاصة تلك التي يظهر فيها أبو زيد مع زوجته أو مع ابنه ، وقد اختصم مع أحدهما ، معسباً حقيقته ، ومرتفعاً إلى قاض أو وال أو صاحب شرطة ليفصل بينهما .

ويبرز هذا الروح الفكاهة في المقامة الثالثة عشرة ، وهي المقامة البغدادية ، وفيها يتراعى أبو زيد امرأة عجوزاً ، يتبعها أطفال ، وهي تستجدي للبتاي ، ناعية حظها ، باكية أهلها وبعلاها . وتتجلّى الفكاهة أقوى ما تكون في المقامة الثلاثين ، وهي المقامة الصورية ، وفيها نرى الحارث بن همام يشهد عقد زواج لعروس من آل ساسان أصحاب الكدية والشحاذة ، ويعقد العقد شيخهم المفضّل أبو زيد السروجي ، وهي تجرى على هذا النمط :

« حكى الحارث بن همام ، قال : ارتحلت من مدينة<sup>(١)</sup> المنصور إلى بلدة صور<sup>(٢)</sup> ، فلما حصلت بها ذا رفعة وخفض<sup>(٣)</sup> ، ومالك رَفَع

(١) مدينة المنصور : بغداد ، لأنه بانها . (٢) صور : بلدة على ساحل لبنان .

(٣) خفض : نعمة .

وَحَفِضُ<sup>(١)</sup> . تَقَتُّ إِلَى مِصْرَ تَوَقَّانَ السَّقِيمَ إِلَى الْأَسَاءِ<sup>(٢)</sup> . وَالكَرِيمَ إِلَى  
 الْمَوَاسَاةِ ، فَرَفِضْتُ<sup>(٣)</sup> عِلَاقِئِ<sup>(٤)</sup> الْأَسْتِقَامَةَ ، وَنَفَضْتُ عَوَاقِقَ الْإِقَامَةِ .  
 وَأَعْرَوْرَيْتُ<sup>(٥)</sup> ظَهَرَ ابْنِ النَّعْمَةِ<sup>(٦)</sup> ، وَأَجْنَلْتُ<sup>(٧)</sup> نَحْوَهَا إِجْنَافَ النَّعْمَةِ ،  
 فَلَمَّا دَخَلْتُهَا بَعْدَ مَعَانَاةِ الْأَيْسِ<sup>(٨)</sup> . وَمَدَانَاةِ الْحَيْسِ<sup>(٩)</sup> كَلَفْتُ بِهَا كَسَلْفَ  
 الشَّوْانِ بِالْأَصْطَبَاحِ<sup>(١٠)</sup> . وَالخَيْرَانَ بِتَنْفَسِ الصَّبَاحِ . فَبَيْنَا أَنَا يَوْمًا بِهَا أَطْرُوفَ ،  
 وَتَحْتَى فَرَسٌ قَطُوفٌ<sup>(١١)</sup> . إِذْ رَأَيْتُ عَلَى جُرْدٍ<sup>(١٢)</sup> مِنْ الْخَيْسِلِ . عَصْبَةً  
 كَمَصَابِيحِ اللَّيْلِ . فَسَأَلْتُ لِانْتِجَاعِ<sup>(١٣)</sup> النَّزْهَةِ . عَنِ الْعُصْبَةِ وَالرَّجْهَةِ .  
 فَقِيلَ : أَمَا الْقَوْمُ فَشُهُودٌ . وَأَمَا الْمَقْصِدُ فِيمَا لَكَ<sup>(١٤)</sup> مَشْهُودٌ . فَحَدَّثَنِي  
 مَسِيحَةَ<sup>(١٥)</sup> النَّشَاطِ . عَلَى أَنْ سَرْتُ مَعَ الْفَرَاطِ<sup>(١٦)</sup> ، لِأَفُوزَ بِخِلَافَةِ اللَّقَاطِ<sup>(١٧)</sup> ،  
 وَأَحُوزَ حَلْوَاءَ السَّمَاطِ<sup>(١٨)</sup> . فَأَفْضَيْنَا بَعْدَ مَكَابِدَةِ الْعَسَاءِ ، إِلَى دَارِ رَفِيعَةٍ  
 الْبِنَاءِ ، وَسِيعَةِ الْفَسَاءِ . تَشْهَدُ لِبَانِيهَا بِالْإِثْرَاءِ وَالسَّنَاءِ . فَلَمَّا نَزَلْنَا عَنْ صَهَوَاتِ<sup>(١٩)</sup>  
 الْخَيْلِ ، وَقَدَّ مَنَا الْأَقْدَامَ لِلدَّخُولِ ، رَأَيْتُ دَهْلِيْزَهَا مَجْمَلًا<sup>(٢٠)</sup> بِأَطْمَارِ<sup>(٢١)</sup> نَحْرَقَةٍ .  
 وَمَكْلَلًا بِمَخَارِفِ<sup>(٢٢)</sup> مَعْلَقَةٍ . وَهَنَّاكَ شَخْصٌ عَلَى قَطِيفَةٍ . فَوْقَ دَكَّةٍ لَطِيفَةٍ .  
 فَرَانِي<sup>(٢٣)</sup> عِنَاوَنُ الصَّحِيفَةِ . وَمَرَّأَى هَذِهِ الطَّرِيفَةَ<sup>(٢٤)</sup> ، وَدَعَانِي التَّطْيِيرُ بِتِلْكَ

- (١) الرفع والحفض : الإعلاء والخط . (٢) الأساة : جمع آس وهو الطبيب .  
 (٣) رفضت : تركت . (٤) علائق : أسباب .  
 (٥) اعروويت الدابة : ركبها . (٦) ابن النعامة : اسم فرس في الجاهلية .  
 (٧) أحفلت : أسرعت ، ويضرب المثل بالنعامة في السرعة . (٨) الأيسن : النعيب .  
 (٩) الحيسن : الموت والهلاك . (١٠) الاصطباح : شرب الخمر في الصباح .  
 (١١) قطوف : بطيء . (١٢) الجرد : جمع أجرد ، وهو قصير الشعر ، وذلك من صفات  
 الخيل الكريمة . (١٣) انتجاع : طلب . (١٤) إملاك : تزويج . (١٥) ميسحة  
 النشاط : سوره وحدته . (١٦) الفراط : جمع فارط وهو الذي يسبق القوم إلى الماء والكلاء .  
 (١٧) اللقاط : ما يلتقط في العرس . (١٨) السماط : الخوان الممدود في الولائم .  
 (١٩) صهوات : ظهور . (٢٠) مجملا : مغطى . (٢١) أطمار : خرق  
 وثياب بالية . (٢٢) المخاوف : جمع مخوف ، وهو الزنبيل الذي يضع فيه الشحاذ طعامه .  
 (٢٣) راني : شككتني ، وكني بعنوان الصحيفة عما رآه بادئ بدء . (٢٤) الطريفة : النعجية .

المناحس<sup>(١)</sup> إلى أن عمدت لذلك الجالس ، فعزمتُ عليه بمصرف الأقدار ،  
 لِيَعْرِفَنِي مَنْ رَبُّ هَذِهِ الدَّارِ ؟ فقال : ليس لها مالكٌ معيّن ، ولا صاحبٌ  
 مبينٌ ، إنما هي مصطبة المقيّنين<sup>(٢)</sup> والمدروزين<sup>(٣)</sup> ، وليجة<sup>(٤)</sup>  
 المشقشقين<sup>(٥)</sup> والمجكزين<sup>(٦)</sup> . فقلتُ في نفسي : إنا لله ! على ضلّة  
 المسعَى ، وإمّحال<sup>(٧)</sup> المرعى : وهمستُ في الحال بالرّجعى ، لكنى  
 استهجنّت العودَ من فوريّ والقهقرة<sup>(٨)</sup> دون غيرى ، فولّجتُ<sup>(٩)</sup> الدار متجرّعا  
 الغصص ، كما يلحّ العصفورُ القفص ، فإذا فيها أرائك<sup>(١٠)</sup> منقوشة ، وطنافس<sup>(١١)</sup>  
 مفروشة ، ونمارق<sup>(١٢)</sup> مصفوفة ، وسجوف<sup>(١٣)</sup> مرصوفة ، وقد أقبل المملِك<sup>(١٤)</sup>  
 يَميس<sup>(١٥)</sup> في بُردته ، ويتبهنّس<sup>(١٦)</sup> بين حفدته<sup>(١٧)</sup> ، فحين جمّاس  
 كأنه ابنُ ماء السماء<sup>(١٨)</sup> ، نادى مُناد من قبلِ الأحماء<sup>(١٩)</sup> : وحرمة  
 ساسان أستاذ الأستاذين ، وقدّوة الشحّاذين ، لا عقّد هذا العقد المجلّ ،  
 في هذا اليوم الأخر المجلّ ، إلا الذي جال وجاب<sup>(٢٠)</sup> ، وشبّ في الكدية  
 وشاب . فأعجب رهط الصهر ما أشار إليه ، وأذنوا في إحضار المنصوص<sup>(٢١)</sup>  
 عليه . فبرز حينئذ شيخ قد أمال الملوان<sup>(٢٢)</sup> قامته ، ونور الفتيان ثغامته<sup>(٢٣)</sup>

(١) المناحس : الأحوال المنحوسة . (٢) المقيّنين : الشحاذين .

(٣) المدروزين : أصحاب الحرف الدنيئة . (٤) وليجة : مدخل .

(٥) المشقشقين : المتفاحصين بالكلام وهم أهل الكدية والشحاذة . (٦) المجلوز :

اصطلاح عند أهل الكدية لمن يتحدث منهم عن فضائل الصحابة . (٧) إعمال : جذب .

(٨) القهقرة : الرجوع . (٩) ولجت : دخلت . (١٠) أرائك : أسرة

(١١) طنافس : بسط . (١٢) النمارق : الوسائد . (١٣) سجوف : ستائر .

(١٤) المملك : العروس . (١٥) يَميس : يتبختر .

(١٦) يتبهنّس : يَميس . (١٧) الحفدة : الخدم والأتباع ، جمع حافد . (١٨) ابن

ماء السماء : ملك من ملوك الحيرة في الجاهلية وهو المنذر بن النعمان . (١٩) الأحماء : الأقارب

للزوج والزوجة . (٢٠) جاب الطرق : قطعها . (٢١) المنصوص عليه : هو شيخ أهل

الكدية المذكور آنفاً . (٢٢) الملوان : الليل والنهار وكذلك الفتيان .

(٢٣) ثغامته : شبيه وأصل الثغامة : شجرة ذات زهر أبيض .

فتباشرت الجماعةُ بإقباله ، وتبادرت إلى استقباله ، فلما جلس على زُرْبَيْتِهِ<sup>(١)</sup> ،  
وسكنت الضوضاء لهيبته ، ازدلف<sup>(٢)</sup> إلى مَسْنَدِهِ ، ومسحَ سَبَلَتَهُ<sup>(٣)</sup> بيده ،  
ثم قال :

الحمد لله المبتدئُ بالإفضال ، المبتدع<sup>(٤)</sup> للنَّوَالِ<sup>(٥)</sup> ، المتقربُ إليه  
بالسؤال . المَسْؤَمَلُ لتحقيق الآمال ، الذي شَرَعَ الزكاة في الأموال ، وزجرَ  
عن نَهْرٍ<sup>(٦)</sup> السَّوَالِ ، وندب<sup>(٧)</sup> إلى مواساة المضطرَّ ، وأمر بإطعام القانع<sup>(٨)</sup>  
والمُحْتَمَرِ<sup>(٩)</sup> ، ووصف عباده المقربين في كتابه المبين ، فقال وهو أصدق  
القائلين ، والذين في أموالهم حَقٌّ معلومٌ ، للسائل والمحروم<sup>(١٠)</sup> ، أحمدته على  
ما رزق من طَعْمَمَةٍ هَنِيبَةٍ ، وأعوذ به من استماع دعوة - بلانيَّة ، وأشهد أن  
لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهاً يجزى المتصدقين والمتصدقات ، وَيَحْصِقُ  
الربا وَيُرْبِي<sup>(١١)</sup> الصَّدَقَاتِ ، وأشهد أن محمداً عبدهُ الرحيم ، ورسوله الكريم ،  
ابتهته لِيَنْسَخَ الظلمة بالضيء ، وينتصف للفقراء من الأغنياء ، فرفق صلى  
الله عليه وسلم بالمسكين . وخفض<sup>(١٢)</sup> جناحه للمُسْتَكِينِ ، وفرض الحقوق  
في أموال المُشْعَرِينَ ، وَبَيَّنَّ ما يجبُ للمُقَلِّينَ على المكثرين ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ  
صَلَاةً تُحْظِيهِ بِالزُّلْفَةِ<sup>(١٣)</sup> ، وعلى أصفِيائه أهل الصَّفَةِ<sup>(١٤)</sup> . أما بعد فإن  
الله تعالى شرع الزواج لتتَعَفَّفُوا ، وَسَنَّ التَّنَاسُلَ لِكِي تَتَضَاعَفُوا ، فقال  
سبحانه لتعرفوا : ( يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى ، وجعلناكم

- 
- (١) الزربية : بساط منقوش . (٢) ازدلف : اقترب .  
(٣) السبلة : اللحية . (٤) المبتدع : المبتدئ .  
(٥) النوال : المطاء . (٦) نهر : زجر . (٧) ندب : حرض وحبب .  
(٨) القانع هنا : السائل . (٩) المعتر : الذي يتعرض للسؤال ولا يسأل .  
(١٠) المحروم : الذي حرم الرزق . (١١) يربي : يزيده وينمي .  
(١٢) خفض الجناح : كناية عن التواضع . (١٣) الزلفة : القرب من الله .  
(١٤) أهل الصفة : جماعة من المهاجرين جعلهم الرسول ضيوفاً على الإسلام لفقرهم وحاجتهم .

شعوباً وقبائل لتعارفوا) . وهذا أبو الدَّرَّاج<sup>(١)</sup> ولاَّج<sup>(٢)</sup> بن خَرَّاج ، ذو الوجه  
الوقاح ، والإفك الصُّرَّاح<sup>(٣)</sup> ، والهرير<sup>(٤)</sup> والصباح ، والإبرام<sup>(٥)</sup> والإلحاح ،  
يخطب سلكية<sup>(٦)</sup> أهلها ، وشريطة<sup>(٧)</sup> بعليها ، قننيس بنت  
أبي العننيس ، لما بلغه من التحافها بإلحافها<sup>(٨)</sup> ، وإسرافها في إسفافها وانكماشها  
على معاشها ، وانتعاشها عند هراشها<sup>(٩)</sup> ، وقد بذل لها من الصداق<sup>(١٠)</sup> شلاقاً<sup>(١١)</sup>  
وعكازاً ، وصقاعاً<sup>(١٢)</sup> وكرَّازاً<sup>(١٣)</sup> فزوجه زواج مثله ، وصلوا حبلمكم  
بحبلمه ، وإن ختم عيمله<sup>(١٤)</sup> فسوف يغنيكم الله من فضله ، أقول قولي هذا  
وأستغفر الله العظيم لي ولكم ، وأسأله أن يكثر في المصاطب نسلكم ، ويجرس  
من المعاطب شملكم .

فلما فرغ الشيخ من خطبته ، وأبرم<sup>(١٥)</sup> للختن<sup>(١٦)</sup> عتقد خطبته<sup>(١٧)</sup> ،  
تساقط من الثَّار<sup>(١٨)</sup> ، ما استغرق حدة الإكثار ، وأغرى الشحيح بالإيثار<sup>(١٩)</sup> ،  
ثم نهض الشيخ يستحب ذلأله<sup>(٢٠)</sup> ، ويقدمُ أراذله<sup>(٢١)</sup> . قال الحارث  
ابن همام :

فتبعته لأنظر عُرْجَةَ<sup>(٢٢)</sup> القوم ، وأكمل بهجمة اليوم ، فعاج<sup>(٢٣)</sup> بهم

- 
- (١) سماه بهذا الاسم كناية عن أنه كثير الدرج والسعي في الطلب .  
(٢) أراد أنه كثير الولوج والخروج في الشحاذة . (٣) الإفك الصراح :  
الكذب الواضح . (٤) الهرير : متابعة الصباح . (٥) الإبرام : الإثقال .  
(٦) السليطة : اللحاحة طويلة اللسان . (٧) شريطة بملها : يريد أنها على وفق  
زوجها . (٨) الإلحاف : الإلحاح . (٩) الهراش : الخاصمة .  
(١٠) الصداق : المهر . (١١) الشلاق : الخلاة . (١٢) الصقاع : الحرقعة تضعها  
الشحاذة على رأسها . (١٣) الكراز : الكوز وقيل القارورة . (١٤) العيلة : الفقر .  
(١٥) أبرم : أحكم . (١٦) الختن : الصهر . (١٧) الخطبة : بكسر الخاء طلب  
التزويج . (١٨) الثَّار : الدراهم التي تنثر في المقدم . (١٩) الإيثار : لتفضل والبذل .  
(٢٠) الذلأل : أسافل الثوب . (٢١) أراذله : يريد أنه يتقدم من ماله من الأراذل .  
(٢٢) عرجة : وقفة . (٢٣) عاج : مال .

إلى سماط زينتته طُهَّاتَه ، وتناصفت<sup>(١)</sup> في الحسن جهاته ، فحين رَبَعَ<sup>(٢)</sup> كلُّ شخص في رِبْضَتِهِ ، وطفق يَرْتَع<sup>(٣)</sup> في روضته ، انسلَّكْتُ من الصَّفِّ ، وفرتُ من الرَّحْفِ .

فحانت<sup>(٤)</sup> من الشيخ لَمْفَتَةً إلى ، ونظرةٌ هجم بها طَرَفُهُ على ، فقال لي : إلى أين يا بَرَم ؟ هلا عاشرت معاشرَةَ من فيه كَرَم ، فقلت : والذي خلقها<sup>(٥)</sup> طباقا ، وطَبَّقَهَا<sup>(٦)</sup> إشرافا ، لا ذقتُ لَمَاقا<sup>(٧)</sup> ، ولا لُسْتُ<sup>(٨)</sup> رُقاقا ، أو<sup>(٩)</sup> تخبرني أين مَدَبُ صَبَاك ؟ ومن أين مهبُّ صَبَاك<sup>(١٠)</sup> ؟ فتنفَّسَ الصُّعْدَاءَ مراراً ، وأرسل البكاءَ مَدْرَاراً<sup>(١١)</sup> ، حتى إذا استنزف اللدَّمُ ، استنصت<sup>(١٢)</sup> الجَمْعَ ، وقال لي : أرعني<sup>(١٣)</sup> السَّمْعُ :

مَسْقَطُ الرَّأْسِ سَرَجٌ <sup>(١٤)</sup>	وبها كنتُ أموجٌ <sup>(١٥)</sup>
بلدةٌ يوجدُ فيها	كلُّ شيءٍ ويروج <sup>(١٦)</sup>
ورُدُّها من سلسيل <sup>(١٧)</sup>	وصحاريها مُروج <sup>(١٨)</sup>
وبنوها ومغائب	هم نجومٌ ويروج
حَبْدًا ففحةٌ رِيًّا	ها ومرآها البهيجُ
وأزاهيرُ رُباها	حين تنجاب <sup>(١٩)</sup> الثلوج
من رآها قال : مرسي	جنَّةِ الدُّنْيَا سرُّوجٌ

(١) تناصفت : تساوت .

(٢) ربع : جلس ، والرَبْضَةُ : مكان الجلوس . (٣) يرتع : يأكل .

(٤) حانت : اتفتت . (٥) يريد خلق السموات بعضها فوق بعض .

(٦) طبقها : مَلَّأها . (٧) اللماق : القليل من الأكل والشرب . (٨) لست :

طمعت . (٩) أو هنا بمعنى إلا أن . (١٠) الصبا : ريح لينة . يريد من أين مجيئك .

(١١) مدراراً : غزيراً . (١٢) استنصت : طلب إِنْصَاتَ الجَمْعِ . (١٣) أرعني :

السمع : ألقِ إلي بسمعك . (١٤) سروج : بلد أبي زيد التي ينسب إليه . (١٥) أموج :

أضطرب وأتحرك . (١٦) يروج : يتيسر . (١٧) انلسليل : العذب البارد .

(١٨) المروج : البساتين . (١٩) تنجاب : تنزاح وتنفرق .

ولمن يتزاحُ عنها      زفَرَاتٌ ونَشِيحٌ (١)  
 مثلُ ما لاقيتُ مُدْرَزَةً      زَحْنِي عنها العُلُوجُ (٢)  
 عَبْرَةٌ تَهْمِي (٣) وشَجْوٌ      كلما قمرَ (٤) يَهِيحُ  
 وهمومٌ كلَّ يومٍ      خَطَبُهَا خَطْبُ مَرِيحٍ (٥)  
 ومساعٍ في التَّرجِي (٦)      قاصرات الخَطَرِ عُوْجُ  
 لَيْتَ يَوْمِي حُمٌ (٧) لِمَا      حُمٌ لِي مِنْهَا الخُرُوجُ

قال : فلما بَسَمَ بلده ، ووعيتُ ما أنشده ، أيقنتُ أنه علاءٌ متنا أبو زيد ، وإن كان الهرمَ قد أوثقه بقَيْدٍ ، فبادرتُ إلى مصافحته ، واغتممتُ مُؤَاكَلَتَهُ (٨) من صَحْفَتِهِ (٩) . وظَلَمْتُ مدةً مقامِي بمصرَ أعشُو (١٠) إلى شُواظِهِ (١١) ، وأحشو صدقتي (١٢) من دَرَرِ أَلْفَاظِهِ ، إلى أن نَعَمَبَ (١٣) بيننا غرابُ البَيْعِنِ ، ففارقته مفارقةَ الجَفَسِنِ للَعَيْنِ .

وواضح أن المقامة كلها بنيت بنايةً فِكْهِيَةً ، ولا يكاد الإنسان يملك نفسه من الضحك حين يبدأ أبو زيد خطبة الزواج ، ويستهلها بما يشير إلى عَوَزِ العروسين ، ويأخذ في بيان ما حضَّ الشارع عليه من الزكاة والصدقات . وما زال يذكر الفقراء وما لهم من حقوق على الأغنياء .

ثم ينتقل إلى الخطبة أو إلى الموضوع فيعرف أهل العروس بالعروس ويقدم لهم شحاذاً وقحاً يكثر من الهرير والصياح ، ويتحدث عن زوجته ، فإذا هي من طيبته . ويذكر المهر ، وكله من أدوات القوم وآلاتهم . ولا يلبث أن يدعو

(١) النشيج : البكاء مع الصوت العالى .

(٢) العُلوج : جمع عُلج ، وهو الضخم من المعجم والروم ، وهو يريد هنا الروم الذين استولوا على سروج في بعض حروبهم ، وكان ذلك في زمن الحريري مؤلف المقامة .

(٣) تهْمِي : تسيل غزيرة . (٤) قر : سكن . (٥) مريح .

مختلط لا يعرف وجه الخلاص منه . (٦) الترجي : الرجاء . (٧) حم : قضى وأتتهى .

(٨) مؤاكلة : الأكل معه . (٩) صحفته : إناؤه الذي يأكل فيه . (١٠) أعشو :

أفصد . (١١) الشواظ : لهب النار . (١٢) صدقتي : يريد أذني . (١٣) نعب : صاح .

لهم بزيادة النسل الذى ستربع فوق المصاطب ، مفتوح الأكفّ للشحاذة والسؤال .

ولا نشك فى أن هذا الأسلوب الفكه فى المقامات الحريرية كان أحد الأسباب المهمة فى ذبوعها وإقبال الناس عليها فى عصره وبعد عصره ، لأنهم وجدوا فيها ما يسليهم ويرفّه عنهم ، ويعينهم على احتمال أعباء الحياة ، ويحطّ عنهم بعض أثقالها .

على أننا نلاحظ أن الحريرى لم يقصد بفكاهته إلى شىء من تقويم النفس وتربيتها ، وإنما قصد إلى المزج والترفيه من حيث هما . فكاهته فارغة من الفكرة ومن العدى والتحليل . ومع ذلك فنحن نؤمن بذكائه ويقظة ذهنه وسرعة خاطره . ولا تظهر سرعة خاطره فى فكاهته وحدها ، بل تظهر أيضاً فى تدفق الألفاظ عليه . وتدفق الأساليب والعبارات المنتقاة ، وكأنما نخّل كتب الأدب نخلا ، واصطفى لنفسه منها أروع ما وجدته فيها من صياغات . وهى صياغات لا تتحول إليه حتى يشتد بريقها ولمعانها بفضل ما كان يصقل فيها ، بل بفضل ما كان يضيف إليها من حليات الصوت وتنميقات البديع .

والحريرى لا يبارى فى انتخاب ألفاظه واختيار كلماته . ولذلك كانت مقاماته فى رأى السابقين أبدع ما أنتجته العصور الوسطى ، وقد ظلت لها مكانتها السامية . وظلت الأعناق تمتدُّ إليها فلا تطوها ، إذ انتهى صاحبها إلى ذروة سامقة من ذرى الفن العربى .

وقد اتخذها الأدباء من عصره إلى عصرنا قبلتهم وكعبتهم : فهم ينهارن منها ، وهم يوقرونها ويجلّونها . ويرون فيها آية الأدب الرفيع . ولم يكتف الحريرى فيها بأساليب النثر المنمقة ، بل ذهب يوشىها أيضاً بأساليب الشعر . فتلأها بالأبيات والمقطوعات . التى تلمع وتتألق فى صحفها . وقد بثّ فيها كثيراً من الحكم والنصائح التى تهدى فى دياجير الحياة .

وهذا كله هو الذى يستر صعوبات المقامة عنده ، فما جاء به من ألعاب بلاغية ، وشعوذات لغوية أو فقهية أو نحوية أو أَلغاز ومعمِّيات ، كل ذلك تغمره أساليبه المنمقة البهيجة ، فلا يشلّ الحركة عنده . بل لا نزال حتى عصرنا نتملّى بجمال ألفاظه وصياغاته ، كما كان يتملى بها معاصروه ومن جاءوا بعده ، ولا نزال نعدّها أجمل ميراث لغويّ ورثناه عن كُتّابنا السالفين .

## مقامات مختلفة

١

### على مر التاريخ

ليس الحريريّ أول من حاول تقليد بديع الزمان في صنُّع المقامة ، فن قبله حاول ذلك أبو نصر عبد العزيز بن عمر السعدى المتوفى سنة ٤٠٥ هـ وأبو القاسم عبد الله بن محمد بن نايقا المتوفى سنة ٤٨٥ .

وطُبعت لابن نايقا تسع مقامات ، ومن يقرأها يراه يتخذ بطلها شخصاً يسميه اليشكريّ ، أما الرواة فمتعددون . وهي تدور في أكثرها على الكمدية ، ولكن ليس فيها جمال اللفظ الذى نجده عند البديع أو عند الحريريّ ، ولعلها من أجل ذلك لم تشتهر في الناس .

وكان القدر ادّخر الحريريّ لينهض بهذا الفن إلى القمة التى كانت تنتظره ، بحيث إننا لا نجد بعده من استطاع أن يخلِّق معه في الأفق الذى صعد إليه ، فقد ظهر دائماً وبرز للعيان أن أجنحة الأدباء الذين حاولوا تقليده لم تكن من القوة والمتانة بحيث يستطيع أصحابها أن يرتفعوا إلى الأجواء العليا التى دوّم فيها وسبّح في طبقاتها .

وربما كان أول من حاول تقليده في إصرار هو أبو الطاهر محمد بن يوسف السَّرْقَسْطَى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ ، فقد اطلع على مقاماته ، فأنشأ خمسين مقامة معارضة لها أتعب فيها خاطره ، وكدّ ذهنه وأسهر ناظره ، ووضعب على نفسه المسالك فيها ، فالترم في نثرها ونظمها ما لا يلزم من تعدد القوافي واشتراط أن تكون من حرفين فأكثر . واتخذ راويته فيها المنذر بن حمام وجعل بطلها السائب ابن تمام . وسقطت هذه المقامات من يد الزمن فلم تصل إلينا .

وفي نفس التاريخ نجد الزمخشري يؤلف مقامات تدور كلها على الوعظ ، وليس فيها راو ، ولا بطل ، بل يبدوها بخطاب نفسه ، وما يزال يعظ مذكراً بالآخرة ، رادعاً النفس عن شهواتها ، خاصاً لها أن تسلك السبيل السوي الذي يؤدي بها إلى الفوز بنعيم الله ورضوانه . ويبدو أنه لم يكن في ذهنه أن يقلد مقامات الحريري ، فقد كان يقول :

أقسِمُ بالله : وآياته      ومَشَعَرَ الحُجِّ ومِيقاته  
إن الحريريَّ حرٌّ بأن      نكتب بالتَّبَرِّ مقاماته

وكل ما في المسألة أنه استعار منه الاسم ليُطْلَقه على مجموعة من المواعظ . ونتقدم في القرن السادس فنجد الحسن بن صافي المصري الملقب بملك النحاة يُصنِّف مقامات على نسق المقامات الحريرية ، ويصنع صنيعه أبو العباس يحيى بن سعيد بن ماري النصراني الطبيب . واشتهرت مقاماته باسم المقامات المسيحية ، قال ياقوت في معجمه : إنه أجاد فيها . وفي نهاية القرن نجد ابن الجوزي يؤلف خمسين مقامة في موضوعات أدبية مختلفة ، ويسعى بها نحو الوعظ على نحو ما سعى الزمخشري في مقاماته ، وكان يعاصره أبو العلاء أحمد ابن أبي بكر بن أحمد الرازي الحنفي الذي ألف ثلاثين مقامة طُبعت في إستانبول مع مقامات ابن نايقا في مجلد واحد ، ونراه يقول في مقدمتها إنه ألفها لقاضي القضاة أبي حامد محمد بن محمد بن القاسم الشَّهْرَزُورِي ، وإنه سيحتذى فيها على مثال بديع الزمان والحريريّ وسُمِّي راويتها الفارس بن بسَّام المصريّ وبطلها أبا عمرو التنوخيّ . ونراه يقلد الحريريّ في بعض أعباءه الأدبية كأن ينظم شعراً كلُّ ألفاظه من ذوات الشين أو الصاد أو العين ، أو ينظم مقامة كل ألفاظها من ذوات الطاء . وقد يجعل المقامة في وصف حمام أو حبرة أو دواة أو قلم أو فرس أو معركة . وهو في ذلك كله يثقل على النفس والأذن بما يستخدم أحياناً من كلمات نابية أو موعلة في الغرابة .

ونمضي في القرون التالية للقرن السادس فتكثر المقامات ، ويكثر المقلدون ،

ويتسع الموضوع الذى تخوض فيه ، فقد يكون الحديث والفقه والنحو كما فى مقامات ابن الصيقل الجَزَرى المتوفى سنة ٧٠١ هـ وعدتها خمسون ، نسب روايتها إلى القاسم بن جريال الدمشقى وحوادثها إلى أبى نصر المصرى . وقد يكون الموضوع وصف الحيوانات مثل مقامات ابن حبيب الحلبيّ المتوفى سنة ٧٧٩ وقد يكون وصف البلدان مثل مقامات ابن الروزدي المتوفى سنة ٧٤٩ .

وربما كانت مقامات السيوطى المتوفى سنة ٩١١ أشهر المقامات التى صنف فى العصور الوسطى المتأخرة ، وهى أشبه ما تكون بالرسائل ، فليس فيها بطل ولا راو ، إنما هى رسائل مسجوعة ، قد تتحدث فى موضوع خيالىّ مثل أنواع الطيب وفوائد كل نوع ومفائده ، وأنواع الرياحين والزهور ودفاع كل نوع عن نفسه . وقد تتحدث فى موضوع جدلىّ مما يتناقش فيه الفقهاء مثل أبوى الرسول وحكهما فى البعث والجزاء ، ومثل صوفية ابن الفارض وما اتهمه به خصومه . وقد تتحدث فى موضوع اجتماعى كالرخاء والغلاء . وهى بهذه الصورة أبحاث مسجوعة . وقد ملأها السيوطى بالحديث النبوىّ وبالعلوم من جميع الفنون طبية وغير طبية . وما تزال اللغة العربية تستقبل هذه الألوان المختلفة من المقامات حتى يخرج العصر الحديث ، فيحاول غير واحد تقليد الحريرىّ ، ومن أشهر من قلده فى القرن الماضى الشيخ حسن العطار فى مصر والألوسىّ فى العراق وفارس الشدياق وناصرى اليازجى فى الشام .

ويجب أن نعرف أن تأثير الحريرى لا يقف عند من قلده فى تأليف المقامات بل يمتد إلى كثيرين من الكتّاب ، ممن قلده فى طريقته . ولعل هذا التأثير الثانى أعمق من التأثير الأول . لأنه يشيع فى أعمال أدبية مختلفة . ويكفى أن نذكر أن كتّاب العرب المحدثين ممن نسمع بهم فى القرن الماضى وأوائل هذا القرن طبعوا جميعاً أساليبهم بطوابعه . وما « ليالى سطيح » لحافظ إبراهيم و « حديث عيسى بن هشام » لمحمد المويلحى إلا ثمرة من ثمار تقليد الحريرى والضرب على نمودجه فى الأسلوب والصياغة .

## مقامة اليازجي

إنما نقف عند هذه المقامة لأن صاحبها نال بها قَصَبَ السبق لا بين معاصريه حسب ، بل بين كل من جاءوا بعد الحريري ، إذ عرف كيف يقلده ، وكيف يُحكّم هذا التقليد ويضبطه ضبطاً دقيقاً .

وقد ولد ناصيف اليازجي سنة ١٨٠٠ م لأب طبيب على مذهب العرب في الطب ، وكان كاثوليكيّاً يقيم بكفر شيا في لبنان بالقرب من بيروت . وعمّه د إلى أحد القساوسة في القيام على تربية ابنه ، وعكف ناصيف على المكتبات في الأديار فنهل منها ما استطاع .

وكان فيه ذكاء وألمعية ، فلم يلبث أن نبغ في الشعر ، وعلى عادة عصره كتب قصيدة في مديح الوالي ، وهو الأمير بشير الشهابي ، ووفد عليه ، وألقاها بين يديه فأعجب به ، ولم تمض إلا سنوات قليلة حتى ألحقه بديوانه . فكث فيه حتى عزل الأمير سنة ١٨٤٠ .

وحينئذ نراه ينزل في بيروت ، ويعرّف فضله ، فتنتدبه المدارس المختلفة للعمل بها كما تنتدبه الكلية الأمريكية ، ويراجع الترجمة التي نشرتها للكتاب المقدس . وما يزال عاكفاً على التدريس من جهة والتأليف من جهة ثانية حتى يلبي نداء ربه سنة ١٨٧١ .

ومن يرجع إلى مؤلفاته يقف على مدى ثقافته ونوعها إذ يراه يؤلف في النحو مختصراً أسماه « طوق الحمامة » . كما يؤلف أرجوزة قصيرة أسماها « اللباب في أصول الإعراب » وأرجوزة طويلة أسماها « جوف الفمرا » ، وكتب عليها شرحاً أسماه « نار الفمرا في شرح جوف الفمرا » . ويراه يؤلف في الصرف أرجوزة قصيرة أسماها « لمحّة الطرف في أصول الصرف » وأرجوزة طويلة أسماها « الخزانة » وكتب

لها شرحاً أسماه « الجُمَانَة في شرح الخزانة ». ويؤلف في الفنين معاً « الجوهر الفرد ، وفصل الخطاب في أصول لغة الإعراب ». ويؤلف في العروض « الجامعة » وهي أرجوزة تتناول مصطلحاته ، وشرحها بما أسماه « اللمعة في شرح الجامعة ». ويؤلف في علوم البلاغة « عقد الجمان ، والطرز المعلم » كما يؤلف في الطب أرجوزة أسماها « الحجر الكريم في الطب القديم » .

ولإنما ذكرنا هذا كله لندل على أن ناصيف ثَقِيفَ العلم العربي كما كان يفهم في عصره وقبل عصره ، فهو قد ألم إلاماً دقيقاً بكل المعارف العربية ، ولم يكتف بذلك ، بل ألف فيها على طريقة القدماء مختصرات وأراجيز وشروحاً . ولما نشر المستشرق الفَرَنْسِي « سلفستر دي ساسي » مقامات الحريري أرسل له رسالة طويلة ذكر له فيها أغلاطه في نشرته . وحظيت هذه الرسالة بتقدير الناشر وغيره من المستشرقين ، وترجمت إلى اللغة اللاتينية .

فنحن إذن بإزاء شخصية طريفة آمنت بالثقافة العربية . ولم يفكر ناصيف في أن يتقن لغة من اللغات الأجنبية ، ولعله كان يحتقر هذه اللغات ، ويرى اللغة العربية كافية في ثقافة الأديب وتخريجه مثلاً رفيعاً من أمثلة الفن .

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفهم موقفه وحياته في عصره ، فهو قانع بالعرب وثقاتهم ، وهو ابن بار بهم ، وبار بلغتهم ، لا يكاد يتصور فوقها لغة ، فهي أفضل اللغات ، وأدبها أفضل الآداب .

ونظر ، فوجد خير النماذج الأدبية فيها الشعر والمقامات ، فكتب غير قليل من الشعر ، ثم خالص للمقامة ، فقرأ مقامات الحريري ، وما استحدثه الأدباء من بعده ، وما زال يكُدُّ ذهنه حتى صاغ مقامته . وأسماها « مجمع البحرين » أخذاً من الآية الكريمة في القرآن : ( وإذا قال موسى لفتاه لا أبرح ، حتى أبلغ مجمع البحرين ) ويريد بالبحرين النظم والنثر .

ولم يكتب خمسين مقامة فقط كما كتب الحريري ، بل زاد عليه عشرًا ، واتخذ راوية هوسهيل بن عباد وبطلا هو ميمون بن خزام ، وهو أديب

شحاّذ من نوع أبى زىء السّرّوجىّ وأبى الفءء الإسكندرى . وألصق به فى كءبر من المقاماء ابءة « لىلى » وءلامه « رءبىا » على نحو ما صنع الحرىرىّ بأبى زىء إذ عرضه فى كءبر من مقاماته ، وهو ىءشاجر مع زوجءه أو مع ءلمىءه وءابعه . وقءدّم لعمله بمقءمة ، اعءرف فىها مءواضعاً بقصّر باعه عن الحرىرىّ وبعءىء الزمان ، وسمّى صنىعه ضرباً من الفضول . ثم انساب بىن مقاماته مرقمّماً لها على نحو ما رقمّ الحرىرى ، وءءخذاً لها أسماء من البءءان ءالبّماً ، واشءرك معه فى ءبر اسم . ونفس الصورة الءى عرّض فىها مىمون ءكاء ءكون بءاءها صورة أبى زىء فأءابىل الأءىر ومكابءه وطرق ءنكّره ، كل ذلك ىءطبّق ءطبىقاً على مىمون .

ونراه فى المقامة الأولى ىعرّف بىن الراوى والبطل ، بالضبء كما ءاول الحرىرىّ فى مقامءه الأولى . فسهىل بن عباء ىملّ ءضر وىمىل إلى السفر ، وىمءطى ناقة ، وما ىزال ىضرب فى القلاء ءءى ىهءم اللىل ، فىرى ناراً مشبوبة وءىمة مضروبة فىمىل إليها وىنادى منّ القوم ؟ وىءببه شءص :

إنى مىمونُ بنىء ءءزامٍ      وهذه لىلى ابءى أمامى  
نعم وهذا رءبٌ ءلامى      من رام أن ىءءل فى ءمامى  
ىأمن من بواءق الأىام

وىم ءءعارف بىنهما . ثم ءكون المقاماء بعء ذلك ، وىءردّ اللقاء والفراق بىن الراوى والبطل ءءى نصل إلى المقامة ءاسعة وءءمسىن ، وهى المقامة المكىة ، وهناك بىن المناسك والمشاءرى سهىل بن عباء مىموناً وابءة وءلامه ، وىصءبه إلى زىارة المءىة ، وىلاءظ علىه شىئاً من ءءىر ، إذ ىراه ىءءب فى الناس واعظاً منءراً ، صاءقاً فى إنءاره ووعظه . وىءم مىمون ءءبءه بهذا الءعاء :

« اللهم ىا سابء الآلاء ، وناىء الإىلاء<sup>(١)</sup> ، هبّ لنا قلوباً طاهرة ، وءىوناً ساهرة ، وأنفساً ءفىفة ، وألسناً ءصىفة ، وأءلاقاً سلىمة ، ونىاء مءءىمة ،

وَيَسْتَسِرُّ لَنَا تَوْبَةً صَادِقَةً ، وَنَدَامَةً حَازِقَةً . وَسِيرَةً هَادِيَةً ، وَعَيْشَةً رَاضِيَةً ، وَعَاقِبَةً حَمِيدَةً ، وَخَاتِمَةً سَعِيدَةً . . . » .

وواضح أنه في هذا الدعاء يطلب التوبة من ربه ، ويندم على ما قدّم من ذنبه . وبذلك يُعِدُّنا اليازجىّ الإشراف على الحلقة الأخيرة من مقاماته . وفي المقامة التالية الستين ، وهي المقامة القدسية ، يلتقى سهيل بن عباد بصاحبه في المسجد الأقصى ، والناس قد تجمّعوا عليه ، وهو يعظّمهم ويحذرهم عذاب النار ، وسوء عُقْبَى الدار . وينظر إلى راويته ، فيذكر ما ارتكب من الأوزار ويتوب إلى الله توبةً نصوحاً ويخفى عن الأبصار . حتى إذا جنَّ الليل سمعه سهيل ينشد :

قم في الدجى يا أيها المتعبّد	حتى متى فسوق الأسرة ترقّد
قم وادع مولاك الذي خلق الدجي	والصبح وامض فقد دحاك المسجد
واستغفر الله العظيم بذلّة	واطلب رضاه فإنه لا يحقد
واندم على ما فات واندم ما مضى	بالأمس واذكر ما يجيء به الغد
واضرع رقل : يا رب عفوك إنسى	من دون عفوك ليس لي ما يعضد

ويستمر في الدعاء والنضرع لربه لا يعفتر ولا يحمل ، فيعلم سهيل أنه قد تحوّل عن حاله ، ويلزمه شهراً ثم يودعه . وكان ذلك آخر عهدهما باللقاء .

ولعل القارئ قد لاحظ أن اليازجىّ في هذا كله يحاكي الحريرىّ ، فهو يبدأ مثله بالتعريف بين الراوى والبطل في المقامة الأولى ، وما يزال يتيح الفرصة للقائهما ، حتى يتجرد البطل عن عرّاض الدنيا ، ويندم على فعله ، ويتوب إلى ربه . ونفس التواضع الذي نلقاه عنده في فاتحة مقاماته وخاتمتها إنما يقلد فيه الحريرىّ تقليداً واضحاً .

### خصائص وصفات في المقامة اليازجية

لا نبالغ إذا قلنا إن مقامة اليازجي تقليد دقيق لمقامة الحريريّ ، فهي تطابقها من جميع الوجوه ، تطابقها في صورة الراوي والبطل ، وتطابقها في أن البطل أديب متسوّل ، وتطابقها في أساليب تنكره وخصوماته مع ابنته وغلامه ، وما يكون هناك من قاض ينظر في الخصومات .

وتطابقها أيضًا في الصياغة ، فهي تدور بين السجع والشعر ، وإن كنا نلاحظ أن الحريريّ يتفوق في الطرفين جميعاً ، فسجعه أخف ، وشعره أرق ، وكأنّ المادة اللغوية ذلّت له بأقوى وأروع مما ذلّت لليازجيّ ، على الرغم من أنه حاول أن يكون صورة منه .

ولسنا نريد أن نزيّ على عمل اليازجيّ ، ولا أن نقول إنه كان صورة سيئة للحريريّ ، فلعل لغتنا لم تعرف مقلداً لعمل في مهرة في تقليده وبلغ منه كل ما أرادته على نحو ما عرفت ذلك عند صاحبنا ، فقد عرف كيف يصوغ نموذجاً على نموذج الحريريّ ، ويظفر لنفسه بجملة الخصائص والصفات الحريرية .

حتى القرآن الكريم الذي اقتبس الحريريّ منه اقتباساً واسعاً جراه فيه اليازجيّ ، وربما تفوق عليه في كثرة ما اقتبس منه بل إن اسم مقاماته استعاره كما مرّ بنا من لفظ القرآن . وقد جعل بطله يتوب في دكة ثم في المدينة والمسجد الأقصى .

وكان اليازجي يتخلّص عن كل شيء فيه ليصنع المقامة بالذوق الحريريّ وعلى السنن التي وضعها لها . حتى عصره لا نجد له أي صدّي في مقامته ، وكذلك البلدان التي اقترحها لها أسماء لا نجد لها أثر في عمله ، فليكن اسم المقامة الشامية أو المصرية أو اللبنانية . فهذا الاسم لا يعنى عنده شيئاً ، إنما هو

بصدد صورة أدبية عامة يعرضها ، وتصادف أن الحريرى وبديع الزمان من قبله سميّا مقاميهما باسم البلدان ، فاستنّ سنتهما واتبع قاعدتهما .

وبنى الحريرى كثيراً من مقاماته على المواعظ والأدعية فتبعه اليازجى فى غير مقامة يعظ ويذكر ، ويدعو الناس إلى العمل الصالح ، ورفض الدنيا ومتاعها ، وانتظار ما عند الله وثوابه ، والأمل فى جنته ورضوانه . يقول فى المقامة المعريّة على لسان ميمون ، وقد وقف بين الجماهير خطيباً :

« اعلّموا أن الله قد أرسلنى إليكم نذيراً ، وأقامنى بينكم سراجاً منيراً .  
 لأذُكركم يوماً عبوساً قَمَطَ ريراً<sup>(١)</sup> ، فلا تغفلوا عن ذكر شُرْبِ تلك الكاس :  
 وهَوِّلْ ذلك اليوم المجموع له الناس ، واتعظوا بمن تقدمكم من القرون والأقران ،  
 ومن درج أمامكم من العيون والأعيان ، وتوبوا إلى بارئكم واندموا على ما فات ،  
 فإن الله يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ، واعتمدوا حفظ الفروض  
 والسُنن ، ولا تَدَبُّوا على خضراء الدَّمَنِ<sup>(٢)</sup> ، فإن المحافظة على الصلوات .  
 لا تفيد من يتَّبَعِ الشَّهوات فى الحلوات ، ومُكابدة الصوم ، لا تنفع من  
 يؤذَى القوم ، وتَجشَّمِ الحج والعمرة<sup>(٣)</sup> ، لا يُزَكِّى شاربِ الحمرة . فليس  
 البِرُّ أن تَواوِجوهكم شَطَطَ المسجد الحرام ، ولكن البِرُّ من اتقى ، والسلام .  
 وواضح فى هذه القطعة كثرة ما استعاره اليازجى من القرآن الكريم . ولم  
 يحاول أن يستعير عباراته فقط ، بل حاول أن يجعل ألفاظه قراراً لصياغاته . وهو  
 فى هذا كله إنما ينسج على منوال الحريرى ، وقد ذهب يكثر مثله من الأمثال  
 والحكم ، بل حاول أن يتفوق عليه فى هذا الجانب ، فنشره فى عمله بأوسع مما  
 نشره صاحبه ، وجعله موضوعاً لبعض مقاماته كما فى المقامة الحكيمية والأدبية .  
 ويظهر أنه أعجب إعجاباً شديداً بألعاب الحريرى البلاغية التى تحدثنا

(١) قمتيراً : شديداً . (٢) خضراء الدمن : ما ينحصر فى المنبت السبى من

النبات ، وهو مثل ، أى لا تنفروا بما قد يزهر فى التربة الخبيثة ، كناية عن زخارف الدنيا .

(٣) العمرة : الحج الأصغر .

عنها آنفًا ، فاحتذى على طريقته فيها ، وصبَّ على قوالبه . والمقامتان :  
الخامسة عشرة والعشرون هما المسرح الذى اختاره اليازجى ليظهر عليه هذه  
الألعاب السحرية . أما المقامة الأولى فأودعها قصيدة كل أبياتها عاطلة من  
النقط ، وثانية كل أبياتها منقوطة ، أو بعبارة أدق كل حروف أبياتها حالية  
بالنقط . وليس هذا حسب ، فقد أنشد قصيدة الشطر الأول منها خالٍ من  
النقط والثانى حال به من مثل :

لا لعهود السود راعٍ ولا فى شجنٍ ذى فتنة يُشْفِقُ

فحروف الشطر الأول كلها مهملة من النقط ، وحروف الشطر الثانى كلها  
معجمة ، وهكذا بقية القصيدة . ولم يكتف بذلك ، بل ذهب ينظم أبياتاً تتألف  
على الترتيب من كلمة معجمة وأخرى مهملة من مثل :

لا تنى العهد فتمشيفنى ولا تُنْجِزُ الوعدَ فتمشنى العِلا

ثم أتبعها أبياتاً تتألف كلماتها من حروف تتعاقب بين الإهمال والإعجام .  
وكأنما أحسَّ أنه لا يزال فى حدود الألعاب الحريرية ، وهو يريد أن يثبت  
مهارته ، فابتكر نوعاً سماه عاطل العاطل . وفيه اشترط على نفسه أن لا تكون  
الحروف التى تتكوّن منها الأبيات مهملة فقط ، بل يكون مسمى الحرف حين  
ننطق به خالياً من النقط أيضاً ، فالحرف « دال » ينطبق عليه الشرط بخلاف  
حرف « عين » . وعلى هذا القيد نظم قطعة من هذا النمط :

واه صَوَّلُ وطَوَّلُ وله صَدُّ ورَدُّ

وكل ذلك ليبرهن على مقدرته الفنية ، وأنه لا يقل عن الحريرى افتناناً ولعباً  
بالألعاب والعقول .

وأما المقامة العشرون فأودعها لعبة مالا يستحيل بالانعكاس ، تلك اللعبة  
التي ابتدعها الحريرى ، والتي راعت معاصريه ومن جاءوا بعده حتى عصر  
اليازجى ، وهى تجرى على هذا المثال :

قمرٌ يُفْرطُ عَمْدًا مُشْرِقٌ رَشٌّ ماءٌ دَمَعٌ طَرَفٌ يَرْمُقُ  
 إذ تستطيعُ أن تقرأ البيت من آخره كما تقرؤه من أوله ، فلا تختلف  
 الألفاظ ولا يختلف المعنى . وكان اليازجى أحسَّ أنه مسبوق بهذه اللعبة الحريرية ،  
 فرأى أن يضيف إليها شيئاً . وإذا هو يصل في بيتين يؤلفهما إلى أنهما إن قرنا  
 مستقيمين كانا ملحقاً على هذا النحو :

باهى المراحم ، لابسٌ كَرَمًا ، قديرٌ مُسْنَدٌ  
 بابٌ لكل مؤمِّلٍ غُنْمٌ لعمرك مُرْفِدٌ

فإن أنت عكستهما وقرأتهما من آخرهما إلى أولهما أصبحتا هجاءً وذمًّا على  
 هذه الشاكلة :

دَنَسٌ مَرِيدٌ (١) قَامِرٌ (٢) كَسَبَ المَحَارِمَ لا يَهَابُ  
 دَفِيرٌ (٣) مِكْرٌ مُعْلَمٌ (٤) نَغِيلٌ (٥) مُؤمِّلٌ كُلٌّ بابٌ (٦)

وكرر هذه اللعبة في المقامة الرجبية . واستطاع أن يصل إليها في المقامة  
 التغلبية عن طريق آخر هو أن تقرأ كلمات قطعة مديح مصحفة فإذا هي  
 هجاء . مثلاً هذا البيت :

لا تُعْرِفُ الأَقْدَارُ فِيهِمُ والرَّيْبُ ولا يبالون بإحراز النَّسَبِ (٧)

يُصَحِّفُ وَيُحَرِّفُ ، فإذا هو على هذا النحو :

لا تُعْرِفُ الأَقْدَارُ فِيهِمُ والرَّتَبُ ولا يبالون بأحراز النَّسَبِ

وليس من ريب في أن اليازجى كان فطناً منتهى الفطنة ، وإلا ما استطاع  
 أن يصل إلى مثل هذه اللعب التي كان يستطيع أن يخرجها من صندوقه اللغوى  
 كلما ابتغى ذلك أو أرادها .

(١) مرید : عاقى . (٢) قامر : مقامر . (٣) دفر : دنس .

(٤) مكر : محارب . (٥) معلم : عليه سمة الحرب أى أنه يريد الشر دائماً .

(٦) نغيل : فاسد . (٧) النسب : المال .

وقد رأى الحريريَّ يعتمد إلى الألباز في بعض مقاماته ، فحاكاه أيضاً في هذا الجانب ، وعرضه مرة أو قل مرتين شعراً ، ومرة أخرى نثراً . أما الشعر ففي المقامة اللغزية والمقامة الحلبية . ومن ذلك هذا اللغز في القمر :

ومولودٌ بدون أبٍ وأمٌّ بلا قوتٍ يعيشُ ولا يموتُ  
له وجهٌ وليس له لسانٌ فيُخبرنا ويلزمه السكوتُ

وأما الألباز الثرية فنثرها في المقامة الحمويَّة ، وقد أظهر فيها تفنناً ومهارة . ونظر فوجد الحريريَّ يخص النحو والفقه بثلاث مقامات ، فعرض لمسائل فقهية في مقامته الإسكندرية ، ولكن في قلة ، وأشرك معها مسائل لغوية وبلاغية : أما النحو فأثبت ، وهو المؤلف الذحوي الكبير صاحب الأراجيز القصيرة والطويلة فيه ، أنه يبذل الحريريَّ في التصنع له والتكلف لجمع مشاكله وطرحها ، تارة في صور عبارات تقرأ بعض الكلمات فيها بجميع الحركات الثلاث كما في المقامة البغدادية ، وتارة بعرض أسئلة مختلفة كما في المقامة الكوفية والبحرية والسوادية . وعنى في المقامة الدمشقية بأن يرينا مقدرته على نظم قواعد النحو . فأنشد فيها أرجوزة طويلة .

ولعل القارئ قد لاحظ أنه بالغ ، وشقَّ على نفسه بعرض كل ذلك في مقاماته ، وكان حريصاً به أن يُنحَى هذه الشلالات أو قل هذه العوائق عن طريقه ، ولكنه ظنها تحفة الفن ، فاعتنقها وبالغ في استخدامها حتى لتصبح بعض مقاماته كأنها متون لبعض العلوم .

وليس علم النحو وحده هو الذي ظفر منه بهذه المبالغة . فربما كان علم اللغة يتفوق عليه إذ خصَّ اليازجيَّ به اثني عشرة مقامة . نظم فيها كثيراً من الأسماء الخاصة ببعض الموضوعات ، وهي أسماء تفيدنا في معرفة معلومات كثيرة عن العرب وحياتهم قبل الإسلام وبعده . ونضرب لذلك مثالا المقامة السادسة ، وهي المسماة بالخزرجية ، فإننا نجد فيها ميمون بن خزام يُسأل عن أسماء المطاعم ، فيجيب :

لِلنَّفْسَاءِ الْخُرْسِ<sup>(١)</sup> وَالْعَقِيْقَةُ<sup>(٢)</sup> لِلظَّفَلِ<sup>(٣)</sup> عِنْدَ عَارِفِ الْحَقِيْقَةِ  
 كَذَلِكَ الْإِعْذَارُ لِلخِتَانِ وَذُو الْحِذَاقِ<sup>(٤)</sup> حَافِظُ الْقُرْآنِ  
 لِلخِطْبَةِ الْمَلِكِ ، وَالْوَلِيْمَةُ لِلعُرْسِ ، وَالْمَيْمُتُ لَهُ الْوَضِيْمَةُ  
 وَلِلْبِنَاءِ جَعَلُوا الْوَكِيْرَةَ وَهَلَالُ رَجَبٍ الْعَقِيْرَةُ  
 وَقِيلَ تَحْفَةُ لَزَائِرٍ يَرِدُ وَشُنْدُخٌ لَمَّا يَصِيْلُ إِذْ وَجُدُ  
 كَذَا نَقِيْعَةُ الْقُدُوْمِ مِنْ سَفَرٍ ثُمَّ الْقَرِيْ لِلضَّيْفِ عِنْدَمَا حَضَرَ  
 وَحَيْثَمَا لَمْ يَكْ مِنْ ذَلِكَ سَبَبٌ فَإِنَّمَا مَادُّبَةٌ عِنْدَ الْعَرَبِ  
 وَإِنْ تَعَمَّ دَعْوَةٌ فَالْجَفَلَسَى تُدْعَى ، وَإِنْ خَصَّتْ فَتِلْكَ النَّقَرَى

وواضح أنه لم يترك اسماً لطعام يتخذ في مناسبة إلا حشده في هذه الأبيات ،  
 وَيُسْأَلُ مِيْمُوْنَ عَنِ نِيْرَانِ الْعَرَبِ ، فَيَنْشُدُ :

أَوَّلُ نَارٍ عِنْدَهُمْ نَارُ الْقَرِيْ<sup>(٤)</sup> وَذَكَرْنَا نَارَ الْوَسْمِ<sup>(٥)</sup> بَعْدَهَا جَرَى  
 وَنَارُ الْإِسْتِسْقَاءِ<sup>(٦)</sup> وَالتَّحَالِفِ وَالصَّيْدِ وَالْحَرْبِ لِمَدَى التَّرَاحِفِ  
 وَنَارُ غَدْرٍ وَسَلَامَةٍ تَعْدَتْ وَنَارُ رَاحِلٍ كَذَا نَارُ الْأَسَدِ<sup>(٧)</sup>  
 وَالنَّارُ لِلسَّلِيْمِ<sup>(٨)</sup> وَالْفِدَاءِ<sup>(٩)</sup> فَجَمَلَةُ النِّيْرَانِ هُوَ لَاءُ

وهذا إحصاء دقيق لنييران العرب ، فلم يترك ميمون ناراً إلا أحصاها . وَيُسْأَلُ  
 عَنِ سَاعَاتِ النَّهَارِ ، فَيَقُولُ :

أَوَّلُ سَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ هِيَ الْبِكُورُ وَالْبِيْرُوغُ طَارُ<sup>(١٠)</sup>  
 وَالرَّأْدُ وَالضُّحَى الْمُتَوَسِّعُ بَعْدُ ظَهِيْرَةٌ ثُمَّ الزَّوَالُ عَدُوٌّ

(١) الخرس : طعام الولادة . (٢) كانوا يعدون العقيقة عند خلق شعره .

(٣) الحذاق : اسم الطعام الذي كانوا يصنعونه حين يتم الطفل حفظ القرآن .

(٤) القرى : الضيافة . (٥) الوسم : هي النار التي توقد ليحموا بها الميسم الذي

يسمون به الإبل . (٦) الاستسقاء : دعاء وصلاة يقوم بهما المسلمون حين يغيب عنهم المطر .

(٧) نار الأسد : نار توقد له حتى ينفر ويفر . (٨) السلم : المملوغ .

(٩) يقال إن العرب كانوا يضيئون هذه النار إذا سببت نداء منهم . (١٠) طار : حادث .

فالعصرُ فالأصيلُ ثم الطَّفَلُ وبالحدُور والغروب تكمل  
ويُسأل عن ساعات الليل ، فينشد :

أول ساعة من الليل الشَّفَقُ وبعدها العَشَوَة يتدراها الغَسَقُ  
فهدأةٌ مُنَمَّتَ شَرَعٌ ثم قَلْبٌ جُنُحٌ وزُلْفَةٌ هزيعٌ يارَجُلُ  
وبعد ذلك غَبَشٌ وَسَحَرٌ والفجرُ والصبحُ الذي ينفجرُ

وكانما كان اليازجى معجماً حَيِّياً ، فهو حافظ لغرائب اللغة وشواردها ، بل  
إن اللغة قد توزعت عنده على أثبات ، في كل ثبَت مجموعة منها . وانظر إلى  
ميمون يُسأل عن رياح الجهات فيجيب :

ما هبَّ من شَرَقٍ فذلك الصبَا ثم الجَسُوبُ عن يمينٍ ذهبا  
ثم الشَّمَالُ والدَّبُورُ وجسرتُ نكباءُ بين كل ريحين سرتُ  
فذلك الأزيبُ ثم الصايبةُ فالهَيْفُ ثم الجريباءُ آتيةٌ (١)

ويعجب السائل ، ويقول له : قد جلوت الرموز ، وفتحت الكنوز ، فهل  
تعرف أيام بَرَدِ العجوز ، فينشد :

صنٌ وصنبرٌ ووبرٌ يُذكَرُ وبعده الأَمِرُ والمؤتمِرُ  
كذا معللٌ ومُطْفِئُ الجِسمِ هاتيك أيام العجوز فادرُ  
فيقول السائل : حُصِيَّتْ يا قُطْبَ العِراقِ ! فما أسماء خيل السباق ؟ فيجيبه :  
أولُ سابقٍ هو المُجَلِّيُّ ثم المُصَلِّيُّ بعده المُسَلِّيُّ  
تالٌ ومرتاحٌ عليه يقبلُ والعاطفُ الحَظِيُّ والمؤمِّلُ  
كذلك اللطيمُ والسُكَيْتُ فاحفظ فما أُعْطِيَتْ قَدْ أُعْطِيَتْ

وهكذا تنتظم المقامة الخزرجية كل هذه المسائل اللغوية ، وكأنه لا يريد  
بمقامته أن يعلم التلميذ الأسلوب الأدبي حسب ، بل هو يقصد قصداً إلى تعليمه

(١) يشير في البيت إلى أن الأزيب : ريح بين الصبا والجنوب ، أما الصايبة فين الصبا  
والشمال ، وأما الهيف فين الجنوب والدبور ، وأما الجريباء فين الشمال والدبور .

اللغة وعويصها وما لا يعرفه إلا خاصة الخاصة . . وليست المقامة الثالثة عشرة بأقل حشداً من هذه المقامة الخزرجية لمسائل اللغة ، وقد بدأ فيها بنظم مشاهير العرب الذين تُرْسَلُ بهم الأمثال من مثل السموعل ووفائه وحاتم وجوده ومعن بن زائدة وحلمه وقس وفصاحته ، ثم ينتقل فينظم مشاهير الخليل عندهم على هذه الشاكلة :

أشهرُ خَيْلِ العرب المشهَرُ	ثم النعامةُ التي لا تنكَرُ
وداحسٌ منهن والغبْرَاءُ	كذلك الخطَّارُ والحَنْفَاءُ
وأعوجٌ ولاحقٌ سَكَابُ	كذلك العُبَيْدُ والعُقَابُ
كذا العَصَا وأمُّها العُصَيَّةُ	وكم لهم أمَّا وكم بُنَيَّةُ

وكل فَرَسٍ من هذه الأفراس كانت ملكاً لبطل أو شيخ من شيوخ العرب أو ملك من ملوكهم ، واستقصاها اليازجي استقصاء . ولم يلبث أن أنشد أبيات العرب من مثل الخبَاء والخيمة والفسطاط ، كما أنشد ألوان طعامهم وأسماء آنيتهم . ولم يكتف بذلك ، فقد أنشد أيضاً أزالام الميسر وهي القداح التي كانوا يتخذونها للقمار ، يقول :

فَدَتْ وَتَوَّأَمُ رَقِيبٌ نَافِسُ	وَالْحِلْسُ وَالرَّابِعُ قَيْلُ الْخَامِسُ
كَذَلِكَ الْمُسَيْبُ وَالْمُعَلَّى	مِمَّا عَلَى النَّصِيبِ قَدْ تَوَلَّى
ثُمَّ السَّفِيحُ وَالْمَنِحُ الْوَعْدُ	لَيْسَ لَهَا إِلَى النَّصِيبِ رُشْدُ

ومعروف أنها عشرة قداح وقد أسماها كلها ، وأشار إلى أن الثلاثة الأخيرة لا يكون لها حظ مقسوم ، والسبعة الأولى يكون لها نصيب معلوم ، كما أشار إلى ترتيب الرواة للنافس وأن منهم من قال هو الرابع ومنهم من قال بل هو الخامس . ونمضى إلى المقامة التاسعة عشرة فنجده ينظم أيام العرب وحرورهم في الجاهلية ، ثم نتقدم إلى المقامة السادسة والثلاثين ، وهي المسماة بالطائفة فنجد حاسته اللغوية تعود إليه ، ويعود معها نظمه للأسماء المتشابهة ، وهو يبدأ ذلك

بِعَرَضِ أَسْمَاءِ الْجَمَاعَاتِ فِي الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانَ يَقُولُ :

زُجْلَةٌ<sup>(١)</sup> نَاسٍ حَاصِبُ الرَّجَالِهُ      وَهَكَذَا كَوَكِبَةٌ الْحَيَالَهُ  
رَهْطُ رَجَالٍ لُئِمَةُ النِّسَاءِ      رَعِيْلُ خَيْلٍ وَقَطِيعُ الشَّاءِ  
وَرَبْرَبُ الْمَهَا<sup>(٢)</sup> صِوَارُ الْبَقَرِ      حَيْلَةٌ مَعَزِي عَانَةٌ مِنْ حُمُرِ  
وَصِرْمَةٌ مِنْ لَابِلٍ وَعَرَجْلَةٌ      مِنَ السَّبَاعِ قَدْ حَكَمْتُهَا النَّقْلَةَ  
خَيْطُ النِّعَامِ وَمِنَ الْجَرَادِ      رَجُلٌ وَسَرْبٌ مِنْ ظَبَاءِ الْوَادِي  
وَهَكَذَا عَصَابَةُ الطَّيْرِ وَرَدٌ      وَخَشْرَمُ النَّحْلِ تَمَّةُ الْعَدَدِ

ويخرج من ذلك إلى نظم عدو الخيل ومراتبه من مثل الحبيب والتقريب والإحضار، ثم ينظم مراتب سير الجمال من مثل الذيب والذميل والرسم والوحد والإرقال. ثم ينتقل فينظم أنواع المشي للإنسان والحيوان، فالصبي يدرج والشيخ يدلّف والفتى يخطّر والمرأة تمشى والرجل يسعى والرضيع يجبو والفرس يجرى والغراب يحجّيل والنعام يهدج، ثم يذكر ترتيب جماعات العسكر، فينشد:

أَقْلُ جَمْعِ الْعَسْكَرِ الْجَرِيدِ      وَبَعْدَهَا السَّرِيَّةُ الْمَزِيدِ  
وَفَوْقَهَا كَتَيْبَةُ تَمِيسُ      فَالْجَيْشُ فَالْفَيْسَلِقُ فَالْحَمِيسُ

ثم ينشد مراتب النخيل من مثل الفسييلة لصغرى النخل، ثم القاعسة والعيّدانة، ثم الباسقة، ثم السحوق الشاهقة. ولا يكتب في ذلك بل ينظم أيضاً ثمر النخل وأسماءه على الترتيب، فأوله طلع ثم سياب فخلال فبغو فبسر. وعلى هذا النحو تتحول المقامة إلى ما يشبه متنا من متون اللغة، وهو متن على الطريقة المعروفة عند العرب إذ حوّلوا معارفهم إلى أراجيز، وكان لليازجي أراجيز مختلفة. وهو يطبق هذا اللون من نظم المعارف في مقاماته، فإذا جوانب منها تتحول إلى متون للحفاظ والتسميع.

ولا يكتب في المقامتين السابقتين من مثل هذه المعارف، فنحن نراه

(١) واضح أنه يجعل الجماعة من الناس عامة زجلة، أما من الرجالة فحاصب وأما من الحيالة فكوكبة، وهلم جرا. (٢) المها: بقر الوحش.

في المقامة الثامنة والثلاثين ينظم مراحل الحياة الخاصة بالرجل ، فهو جنين في الحشأ ، ثم طفل ثم صبي ثم غلام ثم يافع ثم فتى . وكذلك ينظم مراحل الصفات الخاصة بالمرأة وما يخصها دون الرجل فهي كاعب وناهد ونصف وكهله وعانس . وينظم أشكال الإشارة فالإنسان يشير باليد ويومئ بالرأس ويومض بالحنق ويغمز بالحاجب ويرمز بالشفاه ويلصع بالثوب ويلوح بالكم . وينتقل إلى ترتيب المطر ، فأوله الطل وبعده الرذاذ ثم النضج ثم الهطل ثم الوايل المنهل . أما الأنهار فأصغرها الحدول ثم السرى ثم الجعفر . وأما الجبال فأصغرها التبةكة ثم الرابية ثم الأكمة فالزبيبة فالنجموة فالقنف فاهضبة ، وأما الغبار فالخاص منه بالحرب يسمى القسطل وأما العشير فخاص بغبار الأرجل ، وما يثيره الحافر يسمى نقعاً ، وما تهيجه الريح يسمى عجاجاً . وما يزال حتى يذكر أنواع الحيوط ، فللخرز السلك وللجوهر السمط ولخيوط الإبر النصاح وللبناء الزيج . ونمضي إلى المقامة الحادية والأربعين المسماة بالتهامية فنجده ينظم الأصوات التي وضعها اللغة لمختلف الأشياء ، وهو يستهل ذلك بقوله :

هزيرُ رِيحٍ وحفيفُ الشجرِ      هزيمُ رَعْدٍ ودَوَى الصَّطْرِ  
وسواسُ حليمة صليل النصل      قلقلة المفتاح ضمن القفل

ويستمر فيذكر كل ما يمكن أن يمر بالخاطر من مثل رنة القوس وصرير الأقلام وعزيف الجنب وزفير النار ونغم المغني وغطيط النائم وعويل الباكي وقهقهة الضاحك وإهلال المولود وحشرجة المحتضر وحنين النوق وصهيل الخيل وشحيج البغل ونهيق الحمار وخوار العجل وهدير الجمال وثغاء الشاء وخرير الماء وزفير الأسد وضباح الثعلب وبغمام الطي وعرواء الذئب ومواء القط ونباح الكلب ونعيب الغراب وهديل الحمام وستجع القمرى وشقشقة العصفور وزقاء الديك وفحيج الأفعى وطنين الذباب .

أرأيت كيف تتحول المقامة إلى متن لغوي قصير ، يجد فيه الطلاب وسيلتهم إلى حفظ موضوع مهم من الموضوعات اللغوية ؟ وإن في ذلك ما يدل على أن

البيازجى نسي مهمة المقامة الأولى وغايتها من عرض الأساليب الأدبية ، وكأنما خيل إليه أنها ألواح لغوية للحفاظ والتسميع . ولعل ذلك ما جعله يعرض علينا فى المقامة الخامسة والأربعين الكلمات التى تتابها الظاء والضاد من مثل الظهر والظهر والقيظ والقيض والظبّ والضب . أما المقامة السابعة والأربعون فقد عرض فيها لمراتب أسماء الخيل وألوانها من مثل أدهم وأبيض وأحمر وأشقر وأبرش وأبقع وأشهب وكهيت وأحوى ، حتى إذا استوفى ذلك فى الخيل ذهب يأتى بنظيره فى الجمال .

وزاه فى المقامة التاسعة والأربعين المعروفة باللبنانية ينظم أسماء القطع فالجزء للصفوف والحصد للنبات اليابس والجندع للأنف والقص للشعر والتقليم للظفر والقط للعلم . ثم يذكر أسماء الكسر فالشج للرأس والمشم للأنف والهم للسن والقصم للظهر والحطم للعظم والمصر للغصن . وينظم الحصص والقطع ، فالقطعة من الخبز كسرة ، ومن الكبد فلذة ، ومن الشراب صباة ، ومن النار جذوة ، ومن الشعر خصلة ، ومن الثوب خرقعة .

ونجد ألواناً من هذه الطرّف اللغوية فى المقامات الثانية والخمسين والسابعة والخمسين والثامنة والخمسين . وهو يُخصى ذلك ويستقصيه فى أبيات من الرجز ، بالضبط كما كان يصنع أصحاب الشعر التعليمى . فهو معلّم ، وهو لا يعلم اللغة وحدها بل يعلم طرفاً من التاريخ ومن ألعاب الحريرى البلاغية . وليس ذلك حسب ، فهو يعلم أيضاً العروض ، وقد خصّه بالمقامة الحادية عشرة المسماة بالعراقية ، إذ نثر فيها مصطلحاته وأوزانه ، وألقاب قوافيه شعراً ورجزاً . ولا يكتفى بكل ذلك ، فلا يزال يرى أن تكون مقاماته من القوة والمتانة بحيث تجمع فى جمعيتها أكثر ما يمكن من معارف ، ولعله من أجل ذلك خصّ الطبّ كما كان يعرف فى عصورنا الوسطى بمقامة ، هى المقامة الثلاثون المسماة بالطبية ، كما خصّ الفلك بالمقامة الثامنة والعشرين وأسماها الفلكية ، وفيها نراه ينظم بروج السماء ، يقول :

من البروج في السماء الحاصلُ      تنزل فيه الشمسُ إذ تعتدلُ  
والثورُ والجوزاءُ نعم المنزلةُ      وسرطانُ أسدُ وسنبلةُ  
كذلك الميزانُ ثم العقربُ      قوسُ وجدىُ دلوُ حوتُ يشربُ

ثم ينظم منازل القمر من مثل الثريا والدبران والنشيرة والسمك وسعد السعود وسعد الأخبية، حتى إذا أكمل ذلك انتقل ينظم لياليه المسماة وطوالع أضوائه وغوارب أنوائه وأمطاره، وهو في ذلك كله يستخدم الرجز كأنه السيل الذي لا يتقطع . ولا ريب في أن هذا الجانب في المقامة اليازجية يدل على براعة صاحبها، غير أنها براعة لغوية أو علمية، فنصبح وقد انحرفنا عن رياض الأدب والفن، إلى وهاد اللغة والعلم الجافة، التي قلما نجد فيها رَوْحًا أو ريحانا .

وقد يكون اليازجيّ اندفع في ذلك بحكم حبه للعرب، إذ كان يتعصب لهم تعصباً شديداً، وقد مدحهم وأشاد بهم في غير مقامة، وأبى أن يتعلم لغة أجنبية، وأن يتشقف بالآداب الأوربية، واكتفى كما هو واضح في مقاماته بالثقافة والآداب العربية الخالصة. ثم انطلق يحتذى على أمثلة القوم، ومثال الحريري خاصة، متفاعلاً مع ما خلسفوه من تاريخ وأمثال ولغة وغير تاريخ وأمثال ولغة، كأنه يراهم النماذج التي لا تجارى ولا تبارى حتى في ثقافتهم ومعارفهم .

على أنه ينبغي أن لا يظن القارئ أن اليازجيّ بنى مقامته كلها من هذه المواد التي صورناها، فبين مقاماته مقامات خفيفة، ليس فيها كل هذه الأدغال والأعشاب التي رأيناها حتى الآن. ونحن نعرض نموذجاً طريفاً من نماذجه، وهو المقامة الرابعة عشرة المسماة بالهزلية، ليتضح للقارئ من جميع جوانبه، يقول:

« حكي سُهَيْل بن عَبَّاد، قال: كان لي زوجة صناع اليدين، كريمة النبعتين<sup>(١)</sup>، فحسدتني عليها الممنون، وخازني فيها الدهرُ الخثون، فلبثتُ

(١) النبعتين: الأب والأم.

بعدها طويلا ، أرددُ زفرة وعويلا ، وأنوح بكثرةً وأصيلا ، حتى حال<sup>(١)</sup> عليها الحول ، وآلت الفريضة إلى العول<sup>(٢)</sup> ، فناجنتني الحوباء<sup>(٣)</sup> ، أن أستبدل ما طاب لي من النساء . ولما لم أجد في الحى ، من تروق بعينى ، أزمعت الاغتراب ، وبكرت بكور الغراب ، فهملجت<sup>(٤)</sup> سحابة النهار على همالعة<sup>(٥)</sup> عبر<sup>(٦)</sup> أسفار ، حتى إذا جنح الظلام رفرف ، نزلت بقاع صهصف<sup>(٧)</sup> ، فى خلال نفف<sup>(٨)</sup> . فبينما ألقيت وسادى ، وتلقيت ماء زادى ، سمعت غطيطا<sup>(٩)</sup> كأطيط<sup>(١٠)</sup> البعير ، وزفرات تتصاعد كالزفير<sup>(١١)</sup> ، فجنحت عن القمر<sup>(١٢)</sup> إلى السمير ، وأخذت لنفسى الحذر ، وليت أنتكب الغمض<sup>(١٣)</sup> ، وأقلب طرفى بين السماء والأرض ، وإذا جارية قد تنهدت ، ثم أنشدت :

هل من سبيلٍ لى إلى العتاق<sup>(١٤)</sup>      من رِقٍ ظلمٍ أو إلى الإباق<sup>(١٥)</sup>  
ما زلت من ذلك فى وثاق      تكاد روحى تبلغ التراق<sup>(١٦)</sup>  
أطوى على الطوى<sup>(١٧)</sup> من الإملاق      حتى إذا امتدت دجى الأغساق  
أضوى<sup>(١٨)</sup> إلى شيخٍ جوٍ<sup>(١٩)</sup> خفّاقٍ      واهى القوى منهنك الصفاق<sup>(٢٠)</sup>

(١) حال : أتى . (٢) العول عند الفقهاء : هو أن الفروض الخاصة بالورثة تزيد ، فيقل نصيب الوارث . كنى بذلك عن زيادة مدة البكاء على القدر المفروض . (٣) الحوباء : النفس . (٤) هملج : أسرع فى السير . (٥) هلمعة : ناقة سريعة . (٦) عبر أسفار : موعودة على السفر . (٧) صهصف : مستو . (٨) نفف : هوة بين جبلين . (٩) الفطيط : صوت النائم . (١٠) الأطيط : صوت البعير من خياشيمه . (١١) الزفير : صوت لهب النار . (١٢) يريد : حيث يقع ضرره . (١٣) أنتكب الغمض : أتجنب النوم . (١٤) العتاق : الانتاق والانطلاق . (١٥) الإباق : الفرار ، ويقال للبعد الرقيق خاصة . (١٦) التراق : عظام أعلى الصدر . (١٧) الطوى : الجوع . (١٨) أضوى : أضم . (١٩) جو : صفة من الجوى ، وهو الألم فى الصدر . (٢٠) الصفاق : من أغشية البطن .

ذئ لِحِيَةٍ أَثِيَّةٍ<sup>(١)</sup> الأعراف  
 تَلَبَّدَتْ طاقاً وراء طاقٍ  
 كأن فيها مَرَبِضٌ<sup>(٢)</sup> النِّيَابِ  
 وظُلَّةٌ<sup>(٤)</sup> النهارِ كالرُّواقِ<sup>(٥)</sup>  
 ووَضْرُ المِخْطِ والبُصَاقِ  
 فهل كَرِيمُ النَفْسِ والأَخلاقِ  
 وَهَبْتُهُ مالى من الصَّدَاقِ  
 وَزِدْتُهُ ثَوْبِي إلى النِّطَاقِ

قال سُهَيْل : فَأَفْتَتَنْتُ بِفِصاحتِها ، ولم أَلْتَفِتْ إلى قَيْدِ مَلاحِتها ،  
 وقلت : لا جرم إنّه قد خازمني<sup>(٧)</sup> التوفيق ، من معاجيل<sup>(٨)</sup> الطريق ، فأنشدت :  
 الحمد لله وبالله الشُّقَّةُ قد صادفَ الكُحْلُ سوادَ الحدَقَةِ  
 واهماً هذى الطَّرْفَةَ المتَّفِقَةَ إن لم تَقُلْ : وافقَ شَنُّ طَبَقِهِ<sup>(٩)</sup>  
 فَإِنَّا أَحْمَقُ مِنْ هَبْنَقِهِ<sup>(١٠)</sup>

قال : وإذا بالشيخ قد استوى ، وقال : ما ضلَّ صاحبكم وما غَوَى ،  
 وما ينطق عن الهوى<sup>(١١)</sup> ، ثم أنشأ يقول :

قد علم الله الذى له البَقَا لو ترك الدهرُ لكفَى رَمَقًا<sup>(١٢)</sup>  
 لم تَبَقْ إِلا رَيْثٌ<sup>(١٣)</sup> أن تَطَلَّقَا ولم تجد عندى فؤاداً شَيْقَا  
 ولا ذكرتُ جيدها المطوِّقَا ولا جَسِينها النقيَّ اليَقَقَا<sup>(١٤)</sup>  
 ولا سوادَ عَيْنها ذات الرُّقَى ولا مُحْيَاها الجَمِيلَ الطَّلِقَا<sup>(١٥)</sup>

(١) أثية : كثة وملتفة . (٢) مريض : مأوى . (٣) دثار : غطاء .  
 (٤) الظلة : ما يستظل به من الشجر وغيره . (٥) الرواق : السقف في مقدم البيت .  
 (٦) الرمص : ما يسيل من العين المريضة . (٧) خازمة : إذا أخذ كل منهما  
 في طريق ثم تلاقيا . (٨) معاجيل : مختصرات . (٩) مثل للشيشين أو الشخصين  
 يتطابقان . (١٠) هبنقة : عربي قديم يضرب به المثل في الحمق . (١١) العبارة كلها  
 اقتباس من القرآن الكريم سورة النجم ، انظر الآيتين ٢ ، ٣ . (١٢) الرمق هنا : الفضلة من المال .  
 (١٣) ريث : زمن . (١٤) اليقق : الشديد البياض . (١٥) الطلق : المشرق .

ولا حديثها وذاك المنطقاً  
ومهرٌ أخرى بعدها قد لحقاً  
فإن أَرَّ المَهْرَيْنِ عندي غَسَقاً<sup>(١)</sup>  
لا عيش للزوجين لم يتَّفَقَا  
لكن لها على مهرٍ سبقاً  
فإنما الإنسان زَوْجاً خلقتا  
طلَّقتُها والصبحُ لم يَنْبَتَا  
ومن تراه مُعْرِضاً قد وثِقَا  
بالهجر فاهجرهُ إلى يوم اللقا<sup>(٢)</sup>

قال : فاستفزنتي أبيات الشيخ فرحاً ، حتى كدت أصفق مرحباً ، ولم أتمالك أن دلفت<sup>(٣)</sup> إليه دائماً من تيمن<sup>(٤)</sup> ، وقلت : حسيباً الله الشيخ فسمن أنت وممن ؟ قال : أنا المبارك بن ربحان ، من بطون قحطان ، وإني لأرى الفتاة قد شغفتك حباً ، وخلبت منك لباً ، فإن كنت تملك النقدين<sup>(٥)</sup> ، فابدل اللجين<sup>(٦)</sup> ، واغتنم قررة العين .

قال : فسهل على الوجد بذل الجده<sup>(٧)</sup> ، ونفحته<sup>(٨)</sup> بما معي حتى أفعم رُدنه<sup>(٩)</sup> ويده ، فأشهد<sup>(١٠)</sup> عليه الله والملائكة المقرئين ، وقال لي : بالرفاء<sup>(١١)</sup> والبنين . فلما طرحت النقد ، واستبحت العقد<sup>(١٢)</sup> ، أردت أن أتحوّل بأهلي ، إلى رحلي ، فقال : حاشا لك أن تركني الليلة سمير الفرقدين<sup>(١٣)</sup> ، ولكن غدأ تذهب أنت بالعروس وأنا بخفسي حنين<sup>(١٤)</sup> . فبت عنده بليلة الملسوع<sup>(١٥)</sup> ، وعيني لا يأخذها الهجوع ، حتى آذن الصبح بالطلوع . فتبينت ، وإذا الفتاة ليلي الخزمية والشيخ أبوها ميمون ، فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون<sup>(١٦)</sup> ، ما أرى

(١) غسقاً : ليلاً . (٢) يوم اللقا : يوم القيامة . (٣) دلفت : تقدمت .

(٤) تيمن : تبرك . (٥) النقدين هنا : مهر الأولى والثانية اللتين أشار إليهما فيما سبق .

(٦) اللجين : الفضة . (٧) الجدة : المال . (٨) نفحته : أعطيته .

(٩) رُدنه : كنه . (١٠) يريد أنه أشهدهم عليه بالطلاق . (١١) الرفاء :

الاتفاق والألفة . (١٢) يريد بالعقد عقد الزواج . (١٣) الفرقدان : نجمان

يهتدي بهما ، وسمير الفرقدين : كناية عن تفرده ووحده . (١٤) مثل يضرب في الرجوع

بالحياة . (١٥) الملسوع : الذي لسعته الحية ، والعبارة تجرى عند العرب مجرى المثل .

(١٦) العبارة هنا اقتباس من القرآن الكريم ، سورة البقرة آية ١٥٦ .

بَعَلْ هَذِهِ الصَّبِيَّةَ ، إِلَّا كَعُكَّاشٍ<sup>(١)</sup> بَعَلْ طَمِيَّةً ، فَاسْتَغْرَبَ الشَّيْخُ فِي الضَّحْكَ ، ثُمَّ أَشَدَّ غَيْرَ مَرْتَبِكَ :

سَلَامًا يَا بِنَ عَبَّادٍ سَلَامًا      أَكْهَلًا قَمَتَ فِينَا أُمَّ غُلَامًا  
أَرَيْتَكَ<sup>(٢)</sup> إِنْ مَلَكَتُ طَلَاقَ لَيْلِي      فَهَلْ<sup>(٣)</sup> عَقَدْتُ مَلَكَتَ بِهِ الزَّمَامَا  
عُرُوسٍ لَيْسَ تَخْلُو مِنْ خُدَاعٍ      وَقَدْ لَا تَعَدَمُ الْحَسَنَاءُ ذَامَا<sup>(٤)</sup>  
فَطَلَّقْتُهَا<sup>(٥)</sup> كَمَا طَلَّقْتُ وَأَعْلَمْتُ      لَقَدْ جُعِلْتُ عَلَى كُلِّ حَرَامَا  
عَرَفْتُ وَقَائِعِي فِي كُلِّ أَرْضٍ      وَلَكِنْ لَسْتُ تَعْرِفُهَا تَمَامَا  
وَلَسْتُ تَرَى سَقَامًا فِي مَرِيضٍ      فَتَعْرِفُهُ كَمَنْ ذَاقَ السَّقَامَا  
رَزَأْتُكَ<sup>(٦)</sup> يَا أَعَزَّ النَّاسِ عِنْدِي      لَشِدَّةٍ فَاقَةَ بَرَّتِ الْعِظَامَا  
وَرَبِّ كَرِيمَةٍ أَكَلْتُ بَنِيهَا      إِذَا جَاعَتْ وَلَمْ تَجِدِ الطَّعَامَا

قال : فقلت له : شهد الله إنك لأمكر أهل الخافقين<sup>(٧)</sup> ، وأقدرهم على الزين والشين ، قال : يا بُنَيَّ ! إِنْ الْحَمَلَةَ<sup>(٨)</sup> تَدْعُو إِلَى السَّلَةِ<sup>(٩)</sup> ، وَالصَّدْقَ خَمْرًا مَزَاجَهَا الْكُذْبُ<sup>(١٠)</sup> ، وَالْحِدْ ثُوبٌ طَرَاذُهُ اللَّعِيبُ ، وَرُبَّ طَرْفَةٍ<sup>(١١)</sup> ، خَيْرٌ مِنْ تَحْفَةٍ<sup>(١٢)</sup> ، فَإِنْ كُنْتَ قَدْ ظَمِئْتَ إِلَى الضَّحْلِ<sup>(١٣)</sup> ، وَنَسِيتَ أَنْ لَا يَدُ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ لِإِبْرِ النَّحْلِ<sup>(١٤)</sup> ، فَهَبِ الْمَالَ عِنْدِي كِإِحْدَى الْقُرْصِ<sup>(١٥)</sup> ، رِيثًا أُرْزَأُ مِنْ أَسْتَنْصِصُ<sup>(١٦)</sup> لَكَ مِنْهُ الْعِيُوضَ . قلت : قد علم من عنده علم الغيب

(١) عكاش : جبل في بلاد العرب يقابل أرضاً يقال لها طمية ، فهما متلازمان ، والكناية واضحة . (٢) أريتك : أريتك : أخبرني . (٣) يلفت صاحبه إلى أن الزواج لا يكون إلا بمقد ، بخلاف الطلاق ، فكيف يظن أنها زوجته ، وهو لم يعقد عليها ؟ ! (٤) مثل مشهور ومعناه واضح . (٥) يقول له ذلك من باب التهكم كأنه أصبح بعلا لها فعلا . (٦) رزأتك : أصبتك بأخذ المال .

(٧) الخافقين : الشرق والغرب . (٨) الخلة : الفقر . (٩) السلة : السرقة . (١٠) يشير إلى أن الكذب مزاج الصدق كما أن الماء مزاج الخمر . (١١) طرفة : ملحمة . (١٢) تحفة : هدية . (١٣) الضحل : الماء القليل . يريد به هنا المال الذي أخذه منه . (١٤) مثل يضرب للدلالة على أن الطرائف لا يوصل إليها إلا بعد طول الجهد . (١٥) يريد أنه عنده قرص وسلف . (١٦) أستنصص : آخذ .

أن هذه الطرفة عندي خير من نخل هَجَرَ<sup>(١)</sup> وعرائس الحَصِيْب<sup>(٢)</sup> ، فاعتنتني  
 كمن تملق<sup>(٣)</sup> ، وقال كلانا أفلس من ابن المُدَلِّق<sup>(٤)</sup> ، فن أحرز المال  
 فعليه الإنفاق يعلّق . قلت : أنا والمال في يديك ، وكلانا لك وإليك ، قال :  
 حيّاك الله فسنستبدلُ الحَمَرُ بالتممر<sup>(٥)</sup> ، ولكن اليوم خمر ، وغداً أمر .  
 فقضينا يوماً صفاً زُلاله<sup>(٦)</sup> ، وغاب عُدّآله ، إلى أن آذنت الشمس بالأفول ،  
 وهمّ النجم بالقفول<sup>(٧)</sup> ، فجلسنا على الطعام معا ، ثم أخذ كلٌّ منا مضجعا ،  
 وطفق الشيخ يُطرفنا من القصص ، بما يُسيغ الغُصص .

وما زال كذلك مذ أطبقت الجَوْنَةُ<sup>(٨)</sup> على الصُمَيْرِ<sup>(٩)</sup> ، حتى أقبل  
 فحمة<sup>(١٠)</sup> بنه جُمَيْر ، فران<sup>(١١)</sup> على جفنتي الكَرَى ، حتى سقطتُ على  
 الثرى ، محلول العُرَى ، لا أسمع ولا أرى . فلم أنتبه إلا وقد ذر<sup>(١٢)</sup> قرّن الغزاة  
 الضاحي<sup>(١٣)</sup> ، ولا رجل ولا امرأة في تلك الضواحي ، فاستعدت بالله من مكروه  
 ونكره ، وثرتُ إلى الناقة لأرتحلَ في إثره ، فلما دَنَوْتُ من قَتَبِهَا<sup>(١٤)</sup> ، إذا  
 رقعة قد كتب بها :

قُلْ لِسُهَيْلٍ إِذْ يَهْبُثُ فِي السَّحَرِ      اعْدِرْ فخير الناس عندي مَنْ عَدَرَ  
 خُلِقْتُ مطبوعاً على كَيْدِ البَشَرِ      وليس للإنسان تغييرُ الفَطَرِ  
 وَلَا يُعَانِدُ القُضَاءَ وَالْقَدَرَ      إِلَّا الَّذِي عَصَى الإلهَ أَوْ كَتَفَرَ

(١) هجر : بلد بالبحرين . وفي المثل : كستبضع التمر إلى هجر .

(٢) الحصيب : موضع في اليمن يوصف بجمال النساء . (٣) تملق : لاطف .

(٤) عربي قديم لم يكن عنده قوت ليلة ، فصار مثلاً في الإفلاس .

(٥) الجمر هنا : كناية عن الشر ، والتمر : كناية عن الخير .

(٦) زلاله : ماؤه العذب ، كناية عن طيب اليوم . (٧) القفول : الرجوع .

(٨) الجونة : اسم الشمس عند الغروب . (٩) الصمير : مكان غروب الشمس .

(١٠) فحمة بن جمير : نصف الليل . (١١) ران : غلب . (١٢) ذر قرن

الغزاة : طلعت الشمس ، وقرنها : أول ما يبدو من طلوعها . (١٣) الضاحي : الظاهر .

(١٤) القتب : الرجل .

وإن تجدد سَيْثَةً فيما نَدَرَ فكم وكم حَسَنَةٌ فيما عَبَّرَ  
وإن يكن غَمْرَكُ منها<sup>(١)</sup> ماظَهَرَ فلك لا علم لها ولا خَصِيرَ  
إلا الذى عَلَّمْتُهَا فيما اسْتَتَرَ فإن تُردُّ صاحبَ هذه الغُرِّ<sup>(٢)</sup>  
فخذُ أباهَا إنه أسُّ العَبِيرِ

فلما قرأت تلك الرقعة ، عجبت من تلك الرقاعة ، وعلمت أنه لا يحول  
عن هذه الصنعة ولا يترك هذه الصناعة ، فشكرت نعمته إذ لم يأخذ الناقة ،  
ورجعت أدراجي لما اعترض دون سَفَرِي من الفاقة .

وأظن في هذه المقامة ما نطلع منه على جملة الصفات والخصائص التي يتميز  
بها اليازجي ، فاسمها المقامة الهزلية ، ومعنى ذلك أنه حاول أن يجري فيها تياراً من  
الهزل والفكاهة على نحو ما رأينا عند بديع الزمان والحريري .

والقارئ يلاحظ معنا أن فكاهة اليازجي جامدة وأن تيارها لا يتدفق ، فن  
غير شك هذا التيار أقوى عند بديع الزمان والحريري منه ، وكأن طبيعة اليازجي  
الجدية حالت بينه وبين روح الدعابة والفكاهة .

فتوقف هذا التيار وتقطع وظهر في هذه الصورة التي لا نبالغ إذا قلنا إنها  
صورة جامدة ليس فيها انطلاق ، وليس فيها خفة ولا رشاقة ، وكأنما كان  
اليازجي - برغم علمه الواسع باللغة والثقافة العربية - يجهل الدروب والمسالك  
التي تؤدي به وبقرائه إلى واحات بهيجة .

وإن أساليبه لتدخل في صحارى الجزيرة العربية بأكثر مما تدخل أساليب  
البديع والحريري ، فمقاماتهما يظهر فيها أثر الحضارة العباسية وما اكتسبته اللغة  
من مقامها في بغداد وعواصم فارس والعراق ، إذ تهذبت ، وتحولت إلى ما يشبه  
التحف الدقيقة ، وأصبحت جزءاً من هذا الفن العربي الفخم الذي نراه في  
واجهات المساجد والبيوتات وسقوفها الأثرية .

(١) منها : أى من المرأة .

(٢) يقول له : إذا أردت أن تأخذ أحداً بما حدث ، فخذني لأنى أنا صاحب هذه الفنون .

وهما يستجان حقاً ، ويسجع اليازجى ، ولكن السجع عندهما حلية ، أما عند اليازجى فنحس كأنه غريب عن اللغة التى يُعرَض فيها ، فهى لغة صحراوية متبدية ، بل لعل بدوياً صحراوياً لا يستطيع أن يسلك فى أدبه كل ما نجده عند اليازجى من ألفاظ مهجورة .

وقد يكون هذا التبدى أو هذه البداوة أخطر شئ أصاب فن اليازجى لا فى المقامة وحدها ، بل فى كل ما خلّف وترك من آثار نثرية أو شعرية . ونقول أخطر شئ ، لأنه باعد بينه وبين الطبيعية والطبع ، وبالتالي باعد بين عصره وآثاره وأعماله ، فإن من عاشوا معه لم يجدوا فى فنه مرآة لحياتهم ، وإنما وجدوه مرآة لغيرهم ، وهى مرآة تعمق فى القدم حتى تصل إلى العصر الجاهلى بأمثاله الغربية وألفاظه المهملّة .

وهو فى هذا يقرب من ذوق أبى العلاء المعرى فى نثره ، إذ اتخذه وسيلة لإظهار معلوماته وعفوفاته اللغوية . ولكن أبا العلاء استعان بالفكر والفلسفة وما اشتهر به من التعمق فى الآراء ، فلم تبدُ عيوب هذه الطريقة واضحة كما بدت عند اليازجى ، لأن أبا العلاء سترها بالفكر الدقيق العميق ، ولم تكن لليازجى فلسفته ولا أفكاره .

فخرجت مقامته مهملّة النسيج ، وهو نسيج بدوى ، لم تتدخل فيه يد الحضارة إلا قليلاً ، على الرغم من أنه استخدم السجع ووشى ألفاظه بألوان البديع . ولكن هذا كله عنده يأخذ شكل طلاء خارجى ، وهو طلاء لا يكاد يندمج فى أساليبه وعباراته ، لما بين الطلاء والمطلّى من المفارقة والمباعدة والمناقضة أحياناً .

ومعنى ذلك كله أن مقامة اليازجى لا ترتفع إلى مراقى مقامتى البديع والحريرى ، لأنه ضلّ اللغة التى يستخلمها ، فلم ينقل من كتب الأدب ، وإنما نقل من المعاجم ، واختار خاصة أن ينقل من مهجورها ووحشيتها وآبدها . فتخلّفت مقامته ، ولم ينفعه علمه باللغة ، بل لعل هذا العلم هو الذى أضرب

به ، وكذلك لم تنفعه شاعريته ، بل لعل هذه الشاعرية هي الأخرى أضرت به فإنه استغلها في عمل أراجيزه اللغوية والعلمية التي تحدثنا عنها طويلا .

وبذلك أصبحت صحف مقامته أشبه ما تكون بصحف الأدب التعليمي ، فهو يسلك فيها أوابد الكلمات منشورة ومنظومة ، وهو يكثر من ذلك حتى يمل قارئه ، لكثرة ما يعترضه من هذه الصخور .

وقد تكون هذه الصورة التي انتهت إليها المقامة عنده هي السبب الحقيقي في أن أدباءنا المحدثين نفروا من الجحري والسبقي في هذا المضمار ، كأنهم وجدوه لا يلائم الذوق الحديث . وإننا لنأمل أن يجد هذا الفن من الشباب من يعيد إليه الحياة ، ومن يهب له حيوية خصبة ، لا في إطاره السابق ، بل في إطار جديد ، لا يرتبط بالموضوع البسيط القديم ولا بأبطاله الشحاذين ، وإنما يرتبط بحياتنا الاجتماعية الحديثة وما بها من لواذع السخرية في الكلم والمواقف .

# فهرست

الصفحة	
٦ - ٥	مقدمة
١٢ - ٧	معنى المقامة
٧	١ - المعنى اللغوي
٨	٢ - المعنى الاصطلاحي
٩	٣ - خصائص وصفات
١٠	٤ - في الآداب العالمية
٤٣ - ١٣	نشأة المقامة عند بديع الزمان
١٣	١ - بديع الزمان
١٦	٢ - تأليف بديع الزمان لمقامته
٢٤	٣ - الموضوع
٣٢	٤ - الأسلوب
٧٥ - ٤٤	مقامة الحريري
٤٤	١ - الحريري
٤٧	٢ - تأليف الحريري لمقامته
٥٤	٣ - الموضوع
٦٤	٤ - الأسلوب
١٠٢ - ٧٦	مقامات مختلفة
٧٦	١ - على مر التاريخ
٧٩	٢ - مقامة اليازجي
٨٣	٣ - خصائص وصفات في المقامة اليازجية



## كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

- في الدراسات القرآنية
- الوجيز في تفسير القرآن الكريم  
الطبعة الأولى ١٠٥٢ صفحة
  - سورة الرحمن وسور قصار  
عرض ودراسة الطبعة الرابعة ٤٠٤ صفحات
- في تاريخ الأدب العربي
- العصر الجاهلي  
الطبعة السابعة عشرة ٤٣٦ صفحة
  - العصر الإسلامي  
الطبعة الرابعة عشرة ٤٦١ صفحة
  - العصر العباسي الأول  
الطبعة الثالثة عشرة ٥٧٦ صفحة
  - العصر العباسي الثاني  
الطبعة التاسعة ٦٥٧ صفحة
  - عصر الدول والإمارات  
الجزيرة العربية - العراق - إيران  
الطبعة الثالثة ٦٨٨ صفحة
  - عصر الدول والإمارات  
الشام  
الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة
  - عصر الدول والإمارات  
مصر  
الطبعة الثالثة ٥٠٠ صفحة
  - عصر الدول والإمارات  
الأندلس  
الطبعة الثانية ٥٥٢ صفحة
  - عصر الدول والإمارات  
ليبيا - تونس - صقلية  
الطبعة الأولى ٤٤٦ صفحة
  - عصر الدول والإمارات  
الجزائر - المغرب الأقصى - موريتانيا - السودان  
الطبعة الأولى
- في مكتبة الدراسات الأدبية
- الفن ومذاهبه في الشعر العربي  
الطبعة الثانية عشرة ٥٢٤ صفحة
  - الفن ومذاهبه في النثر العربي  
الطبعة الحادية عشرة ٤٠٠ صفحة
  - التطور والتجديد في الشعر الأموي  
الطبعة العاشرة ٣٤٠ صفحة
  - دراسات في الشعر العربي المعاصر  
الطبعة التاسعة ٢٩٢ صفحة
  - شوقي شاعر العصر الحديث  
الطبعة الثالثة عشرة ٢٨٦ صفحة
  - الأدب العربي المعاصر في مصر  
الطبعة العاشرة ٣٠٨ صفحة
  - البارودي رائد الشعر الحديث  
الطبعة العاشرة ٣٠٨ صفحة
  - الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر  
بني أمية  
الطبعة الخامسة ٣٣٦ صفحة
  - البحث الأدبي :  
طبيعته - مناهجه - أصوله - مصادره  
الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة
  - الشعر وطوباهه الشعبية على مر العصور  
الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة
  - في التراث والشعر واللغة  
الطبعة الأولى ٢٧٦ صفحة
- في الدراسات النقدية
- في النقد الأدبي  
الطبعة الثامنة ٢٥٠ صفحة

## في مجموعة فنون الأدب العربي

### • الرثاء

الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

### • المقامة

الطبعة السابعة ١٠٨ صفحات

### • النقد

الطبعة الخامسة ١١٢ صفحة

### • الترجمة الشخصية

الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

### • الرحلات

الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

## في التراث المحقق

### • المغرب في حلي المغرب لابن سعيده

الجزء الأول - الطبعة الرابعة ٤٦٨ صفحة

الجزء الثاني - الطبعة الرابعة ٥٧٢ صفحة

### • كتاب الصبغة في القراءات لابن مجانده

الطبعة الثالثة ٧٨٨ صفحة

### • كتاب الرد على النحاة

الطبعة الثالثة ١٥٢ صفحة

### • الدرر في اختصار المغازي والسير

لابن عبد البر

الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة

## • فصول في الشعر ونقده

الطبعة الثالثة ٣٦٨ صفحة

## في الدراسات البلاغية واللغوية

### • البلاغة : تطور وتاريخ

الطبعة التاسعة ٣٨٠ صفحة

### • المدارس النحوية

الطبعة السابعة ٣٧٦ صفحة

### • تجديد النحو

الطبعة الرابعة ٢٨٢ صفحة

### • تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع

نهج تجديده

الطبعة الثانية ٢٠٨ صفحة

### • تيسيرات لغوية

الطبعة الأولى ٢٠٠ صفحة

### • تحريفات العامية للفصحى

الطبعة الأولى ٢٠٣ صفحة

## في مجموعة نوايغ الفكر العربي

### • ابن زيدون

الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة

## في سلسلة «أقرأ»

الطبعة الثانية

• الثكاهة في مصر

الطبعة الخامسة

• العقاد

الطبعة الثانية

• معنى (١)

• البطولة في الشعر العربي

الطبعة الأولى

• معنى (٢)

الطبعة الثانية